

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صور طبق الأصل



أطيفاف

الطبعة الأولى	الناشر : دار التوزيع والطباعة والنشر
سنة ١٩٤٧	طبع في شركة فن الطباعة
الطبعة الثانية	الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٥١	طبع في شركة فن الطباعة

الطبعة الأولى	الناشر : دار التوزيع والطباعة والنشر
سنة ١٩٤٧	طبع في شركة فن الطباعة
الطبعة الثانية	الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٥١	طبع في شركة فن الطباعة

نائب عزرائيل

الطبعة الأولى	الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٤٨	طبع في شركة فن الطباعة
الطبعة الثانية	الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٥٠	طبع في شركة فن الطباعة

اثنتا عشرة امرأة

الطبعة الأولى	الناشر : دار النشر العربية
سنة ١٩٤٨	طبع في دار الأحد بيروت : لبنان
الطبعة الثانية	الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٥١	طبع في شركة فن الطباعة

خبيايا الصدور

الطبعة الأولى	الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٤٨	طبع في شركة فن الطباعة
الطبعة الثانية	الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٥٠	طبع في شركة فن الطباعة

يا أمة ضحككت

الطبعة الأولى } الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٤٩ } طبع في شركة فن الطباعة
الطبعة الثانية } الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٥٠ } طبع في شركة فن الطباعة

اثنا عشر رجلا

الطبعة الأولى } الناشر : مكتبة النهضة
سنة ١٩٤٩ } طبع في مطبعة السعادة الكبرى

أرض النفاق

الطبعة الأولى } الناشر : دار الفكر العربي
سنة ١٩٤٩ } طبع في شركة فن الطباعة
الطبعة الثانية } الناشر : دار الفكر العربي
سنة ١٩٥١ } طبع في شركة فن الطباعة

في مركب الهوى

الطبعة الأولى } الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٤٩ } طبع في شركة فن الطباعة

من العالم المجهول

الطبعة الأولى } الناشر : دار الفكر العربي
سنة ١٩٥٠ } طبع في شركة فن الطباعة
الطبعة الثانية } الناشر : دار الفكر العربي
سنة ١٩٥١ } طبع في شركة فن الطباعة

هذه النفوس

الطبعة الأولى } الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٥٠ } طبع في شركة فن الطباعة
الطبعة الثانية } الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٥١ } طبع في شركة فن الطباعة

إني راحلة

مبكي العشاق { الطبعة الأولى } الناشر : دار الفكر العربي
سنة ١٩٥٠ طبع في مطبعة الاعتماد

بين أبو الريش وجنيذة ناميش { الطبعة الأولى } الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٥٠ طبع في شركة فن الطباعة

أغنيات { الطبعة الأولى } الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٥١ طبع في شركة فن الطباعة

أم رتيبة { الطبعة الأولى } الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٥١ طبع في شركة فن الطباعة

هذا هو الحب { الطبعة الأولى } الناشر : دار الفكر العربي
سنة ١٩٥١ طبع في شركة فن الطباعة

صور طبق الأصل { الطبعة الأولى } الناشر : مكتبة الخانجي
سنة ١٩٥١ طبع في شركة فن الطباعة

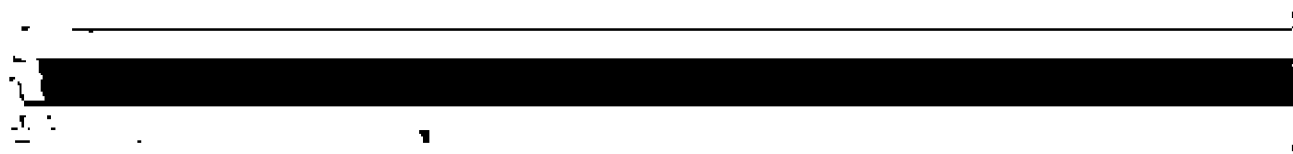
الأهداء

إلى خير من فرّج عني الهم . . وأزال الكرب .
إلى أحد أصول هذه الصور .

الصديق

عبد المنعم الشاذلي

بومست المباعي



مقدمة

هذه القصص أخذتها من الناس . . صور طبق الأصل لهذا وذاك . . لا أدعى لنفسى فيها حق ولا فضل . . ولا أحرم على أحد أن ينقل منها أو يقتبس — لو وجد فيها ما يستحق النقل والاقتباس — وكيف أحرم شيئاً مشاعاً . . شيئاً أنا نفسى ناقله من الأصل المجسد . . كيف أحرم على الناس ما أخذته من الناس .

أستطيع أن أدعى لنفسى حقاً فى ، إمام الفك ، و ، خال علام ،
وهى مخلوقات حية تسعى بيننا ؟

أم يكفى أن أضع إسمى عليها . . كأنى قد شاركت الرب فى خلقها . . حتى أحاول أن أدّع لنفسى عليها حقوقاً محفوظة !!

حرام والله . . إنى أحس من هذه القصص بمنتهى الخجل . . فلو استطاعت النطق لصاحت بى .

، أيها المؤلف المدعى . . رفقاً . . ما أنت إلا غي . . مغرور . . محتمل . . غي كغيرك من البشر . . هياً لك الغرور أنك أفضل من سواك طينة وأطيب معدناً . . جلست ترقب وتكتب . . وسوّات لك نفسك المحتمالة أن تبيع الناس ما كتبت عنهم . . فتنال منهم النقود . . وربما الإعجاب . .

إنها على حق . . إنى خجل . . ولولا يقينى بأنى لست المحتمل الوحيد فى هذا البلد . . لما أقدمت على نشره .

بروف السباعى

الشيخ زكريا

تحت الطبع

الشيخ زكريا وآخرون

تمثيلات قصيرة

آثار في الرمال

نفحة من الإيمان

أساطير الأولين

السقامات

موته لله

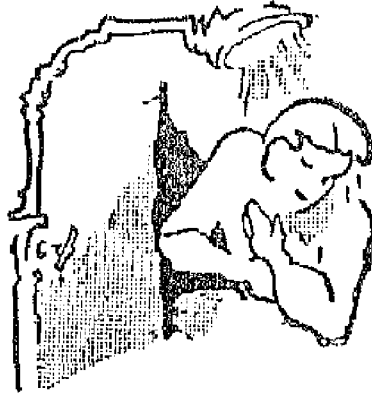
بين الأطلال

تطلب كتب المؤلف من :

مكتبة النهضة المصرية ، ودار الفكر العربي ، والخانجي بالقاهرة

• المثني ببغداد .

• المعارف ببيروت .



وخرج خال علام من الحمام وهو يصرخ
ويتأوه .. ويسأل علام : لمّ لم يخبره أن
الاستحمام عندم جناية . واندھش علام
ووقف يستمع لما حدث .

خال علام ..

الواقعة في ميس السوارى منذ ما يقرب من
عشر سنين ، ولست أدري أى شيطان ضاحك
يدفع بها الآن في رأسى وأنا أجلس للكتابة فيرغمى
على أن أسطرها وأنشرها لتتخذ مكانها بين ما تعودت
أن أكتب من أقاصيص . ويبدو لى أن من الخير — قبل
أن أروى الواقعة — أن أعطى للقارىء فكرة عن حياتنا
وقتذاك . . . فأرسم له ما يسمونه « الباك جراوند » التى
ستتخذ الواقعة محلها فيه .

كنا ثلة عزّاب نقطن الميس . والميس — لمن لا يعلم —
هو سكن الضباط الذين يعيشون في الشكنات . وكان ميس
السوارى مكوناً من ست حجرات ، يسكنها دائماً أحدث
سنة ضباط ، وهو مكون من طابق واحد على شكل مستطيل
ناقص أحد الأضلاع . . يشغل الجناح الأيمن منه حجرات
السكن . . والجناح الأيسر يشغله صالون الجلوس وحجرة
الأكل . ويقوم وراءه بناء منفصل يقع به المطبخ والحمام ،
وعنبر لنوم المراسلات وحمام آخر لهم .

هكذا عن الميس من حيث البناء . . أما من حيث السكان
فإنى أجيد من العسير على وصفهم . . فإن نوادرهم تتكأ كأ

على ذهني ، فلا أدري بأيهم أبدأ ، وقد كانوا كلهم أناساً
ظرفاء . . عزازاً لطافاً . . وكان لكل منهم شخصيته المرححة
المستقلة .

إنى لأجد الذهن يعود بي القهقري فيقطع السنين
الطوال في لمح البرق ، وأجد نفسي مرتدياً الحذاء الطويل
وينطلون الركوب والقميص ، وقد عدت إلى الميس بعد
المغرب عقب تمام المساء والهتاف . . وقد أحسست بساقى
قد كتما من فرط السير واللف في الشككات ، وأدخل إلى
الصالون لأرتمي على أقرب مقعد . . وليس لي من أمنية
سوى أن أنزع الحذاء الطويل لحظة لأريح قدمي .

والتفت حولى فأفاجأ بالبارودي — أحد زملائي —
وقد اضطجع في أحد المقاعد ومدد ساقيه وهو ما زال
برداء الطابور وبالحذاء .

وتصيبني الدهشة من منظره . . ترى ماذا أجبره على
البقاء إلى هذه اللحظة . . سجين القدمين معذب الجسد ؟
ولم لم يلق عنه ملابسه وينطلق بعيداً إلى الخارج ليروح
عن نفسه ؟

ولا تمضي فترة قصيرة حتى أعرف العلة وأستجلي
السبب .

إنه اللموني . . ولا أحد سواه .

أجل ! إن اللموني هو سبب بقاء أنور البارودي بهذا
المنظر حتى الآن . . فلقد كان يناقشه الحساب . . وحساب
اللموني — لو تعلمون — عسير .

ولكنكم لم تعرفوا اللموني بعد . . فيجب عليّ أن أقدمه
لكم أولاً .

اللموني هو حَكمدار الميس وقائد الطباخين والسفرجية
والمراسلات . هو الذي يتولى عملية شراء لوازم المطبخ من
السوق . . وهو المسئول أمام ضابط الميس عن تقديم
حساب الميس .

ولا أظنكم تجهلون مبلغ مهارة الطباخين في المغالطة في
الحساب . وكما كان اللموني قائد الطباخين . . كان — بحكم
المهنة — شيخ المغالطين .

لننظر إلى البارودي — وقد كان وقتذاك ضابط
الميس — وقد اعتدل في مجلسه وأوقف اللموني أمامه
يحاسبه حساب الملكين .

— ها . . وجبت إليه كان ؟

— ست ارطال لبن وأقتين سكر .

— عشان إيه دول ؟

— عشان الرز أبو لبن .

— ست ارطال لبن وأقتين سكر عشان ست اطباق رز

بلبن ؟ يعنى قصداك تقول إيه ؟ قصداك تقول إن كل طبق
خد رطل لبن ؟

— مضبوط .

— مضبوط إزاي بقى ؟ ١ . طب أنا حاجيب رطل لبن

وأفرغه فى الأطباق وأشوف يملا طبق واحد بس زى
ما بتقول والا لا .

ويبدأ البارودى تجربته . . فإذا بالرطل يملا أربعة
أطباق . وينظر إلى اللموني وهو يحاول أن يكتم ثورته
ويصيح به :

— إيه رأيك ؟

وبمنتهى الهدوء يجيب اللموني :

— أصل اللبن بيتبخر ، يقوم يخس .

— طيب بلاش كده . . تعرف الطبق الواحد على

حسابك يكلف كام ؟

— كام ؟

— خمسة صاغ . . الطبق اللى بناكله عند استرا أو أسديه

بتلاته تعريفه . . بتعمله إنت بخمسه صاغ ، إيه رأيك بقى ؟

— وهوّا دازی بتاع اُسديه ؟

— لا العفو . . زيه ازای ؟ مش ممکن . . علی العموم
یا لمونی من هُنا ورايح ما تعملش رز بلبن اُبدآ . مش
ضروری نا کل رز بلبن . . هات حلو آی حاجه . . هات
بلح أمهات .

— کل یوم ؟

— آیوه کل یوم .

وینتهی حساب الرز أبو لبن ، ویدأ حساب آخر لا یقطعه
سوی دخول الشاذلی مصفقاً بیدیه منشدآ بأعلى صوته :
« یا تلتیمیت مرحبا و سلامات یا خلی . . یاللی تکید العواذل
وانت داخل لی . »

والشاذلی کان فی ذلک الوقت عاشقآ . . وقد کان هذا
العشق هو سر بقاءه فی المیس . فقد کان یقضى جل وقته
یهز رأسه ویترنم بأناشید الهوی .

ویبصر الشاذلی اللمونی وهو یهم بالانصراف من أمام
البارودی فینادی علیه :

— لمونی الکلب . . تقدر تقول لی اللحمه اللی جبتها

النهارده دی جبتها منین ؟

— من الجزار .

— مش ممكن ، لازم جبتها من العتقى .. تعرف أنا متها
لى إنك انت لما بتروح تشتري لنا الأكل بتعمل إيه ؟ تروح
للخضري وتقول له : عندك كوسة شايخه ؟ يقوم يقول لك
لا . تقول له : ولا بطاطس معفنه ؟ يقول لك برضه لا ..
تقول له : طيب عندك قورطه حمضانه ؟ يقول لك عندي
شويه . تقول : طيب لمهم لى .. وبعدين تروح عندا الجزار
تسأله على لحمه بايته والا منتنه .. وتفضل تلم الزباله اللى فى
السوق وتيجى تطبخها لنا .

— إزاي بقى يافندم ؟

— أهو كده .. اليوم اللى ماتطبخش فيه يبقى لازم
ما فيش فى السوق حاجه وحشه .
وبعد لحظة يدخل علام ، فينظر إلى اللمونى أيضاً
ويصيح به :

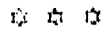
— لمونى .. من بكره تطالع طابور ركوب .
وهنا ينهار اللمونى .. فقد كانت تلك أكبر كارثة يمكن
أن يصاب بها .. فقد كان بجسده الأبيض السمين المررب
لا يصلح قط للركوب . وكان يعتبر طابور الركوب العذاب
الأكبر .

وينصرف اللمونى ، وتتوافد الثلة الواحد بعد الآخر

حتى يكتمل العقد وتنطلق الضحكات الخالصة من صدور
لا تحمل الهم ولا تعرف الحزن .
وتبدأ الثلة في التفكير في العشاء ، فيصبح علام بعثمان
شديد :

— وله يا شديد !
— عايز إيه يا علام ؟
— تشاركني في أقة عنب ؟
— عنب إيه يا عم .
— طيب تشاركني في بطيخه ؟
— لا يا عم أنا ما احبش البطيخ . . أنا حاتعشى عسل
وطحينه .
— إيه ؟ ! وبعدين لما أجيب البطيخه تبقى تقول لي
اديني شقة ؟
— يا أخى بلاش دوشه . . إبعد عني . . بطيخ إيه . .
وعنب إيه .
ويشتري علام البطيخة . . ولا يكاد يشقها حتى يهجم
عليه شديد خاطفاً قلبها . . فيمسك علام البطيخة ويلبسها
رأس شديد .

ولكن مالى قد استرسلت فى الدردشة وقص الذكريات
ورسم «الباك جراندا» حتى كدت أنسى القصة نفسها ؟
هل يسمح لى القارىء بأن أسترسل به فى مجرد حديث
ويغفر لى هذه المرة ألا أعطيه قصة ؟
لا أظن . . فقد ابتليت بأنى قاص ، والقارىء لى
ينتظر منى ولن يستسيغ سوى قصة .
حسن . . لنبدأ القصة إذن . . وعوضنا على الله .



تلك كانت ثلة ضباط الفرسان الذين يقطنون الميس
وقتذاك . . أنا والشاذلى والخضيرى وسعد الدين وعلام
وسليمان وشديد وعبد العزيز مصطفى والبارودى . . ثلة
مرحة ضاحكة . . نضحك من كل شيء وعلى كل شيء . .
لم يكن يشغل بالنس وقتذاك سوى شيء واحد :
هو الحمام المبتل ١١

كنا نخرج مبكرين إلى طابور الركوب ، فإذا ما عدنا
للفطور بعد الطابور ودخلنا إلى الحمام لكي نغسل أيدينا أو
وجوهنا وجدنا أرض الحمام مغطاة بالمياه ، وأن هناك من
استعمل الدش .
ويرفع علام عقيرته بالصياح :

— يا الموني .

ويأتى الموني مرتجفاً ، فيصيح به علام :

— إيه الميه دى ؟

ويهر الموني رأسه فى دهشة ولا ينبس ببنت شفة .

ويستمر علام فى صياحه :

— فيه حد بيستحمى هنا واحنا فى الطابور ؟

— لا يافندم .

— لا إزاي ؟ . . مش ممكن ، لازم يكون فيه حد

استعمل الدش .

ويقسم الموني أيماناً مغلظة بأنه لم يستعمله ولم ير أحداً

يستخدمه .

وأخذت الواقعة تتكرر كل يوم . . نعود من الطابور

فنجد أن الحمام مبتل وأن المياه قد أغرقت أرضه .

من ذا الذى يستحم يا ترى ؟

وأقسم علام أن يضبط المستحم فى حمام الضباط متلبساً

بجريمته ، وأن يريه نجوم الظهر .

ومرت الأيام ونحن نحاول أن نجد الفاعل عبثاً ، حتى

كان ذات يوم حضر أحد أقارب علام لزيارته وأظنه خاله .

ورجانا علام أن نحترم أنفسنا أمام الرجل . . وأن

نتمسك بأهداب الآداب ونكف عن التهريج ، حتى نظهر
أمامه بمظهر محترم .

ولم يكن طلب علام بالمطلب اليسير ، فقد كان من
أصعب الأمور أن نتكلف الجد وأن نكف عن المزاح ،
واسكننا — مراعاة لحاطر علام وقريبه المحترم — صممنا
على أن نكلف أنفسنا ما لا طاقة لها به ، وأن نتحلى بالجد
والآداب .

وكان قريب علام قد حضر من أوربا ، وقد نوى أن
يبيت ليلته مع علام حتى يسافر في غده إلى الإسكندرية .
وقلنا لأنفسنا : لا بأس .. ليلة واحدة من الأدب يمكن
احتمالها في سبيل علام ، وفي سبيل أن يأخذ الأغراب عنا
فكرة حسنة .

وهكذا تذرعنا بالآداب والتزمنا الجد ، وجلسنا إلى
العشاء في سكون وخشية دون أن ينبو عنا لفظ جارح ،
أو كلمة خارجة ، ودون أن نخاطب بعضنا بعضاً إلا بالرتب
والألقاب .

ولست أشك في أننا قد نجحنا في محاولتنا أيما نجاح ،
وأن الرجل أعجب بنا أيما إعجاب ، وأننا رفعنا رأس الفرسان
عالياً في نظر الرجل .

وفي الصباح خرجنا كعادتنا إلى الطابور ، وعدنا كأننا إلى
الميس بعد الطابور إلا واحداً . هو الشاذلي . . فقد عاد قبلنا
وترك الطابور في منتصفه ، لأنه كان متعباً ، إذ كان على سفر
في الليلة السابقة .

أتسمحون لي بوضعة أسطر أصف فيها الشاذلي ؟
إنه إنسان يستحق الوصف . . إذ هو بطل الواقعة .
هل تسمحون ؟

سمحتم أم لم تسمحوا . . سأصفه وأجرى على الله .
إن خير ما يوصف به الشاذلي هو أنه رأس وحنجرة
وهو يستعمل حنجرتة أكثر من رأسه . . زعموا أنه كتب
له في تقريره السري ذات مرة أنه « ضابط لا يحتاج إلى
بروجي » ، وهو فعلاً لا يحتاج إلى بروجي . . لأنني أسمع
صوته أحياناً وهو يتكلم وأكون جالساً في مكنتي في
كوبرى القبة ، وأقوم لأبحث عنه فلا أجده ، ثم يتضح لي
في النهاية أنه يتكلم في مصر الجديدة ، مجرد كلام .

لا أظن أن به ما يوصف أكثر من هذا . اللهم إلا أنه
حاضر البديهة ، سريع النكسة حاضرها ، ويقولها ولو على
نفسه وذويه . . ويفضل أن يقولها ثم يعدم أو يسجن على
أن لا يقولها .

وهو مخلوق شديد النكاه والوفاء ، باطنه خير بكثير من ظاهره ، والفضل في تشويه ظاهره له وحده فهو خير من يشنع بنفسه ولقد قلت له ذات مرة إن خير طريقة لتحسين سمعته هو قطع لسانه ، وهو يتلف إلى سماع الإشاعات وترويجها ويجيد المبالغة لغير ما سبب ولا فائدة .

عاد الشاذلى من الطابور ، واتجه أول ما اتجه إلى المطبخ ليسأل اللمونى عما أعدده من إفطار . . . والتم فى فمه « اللى فيه القسمه » على سبيل التذوق . . . وشم اللمونى بما فيه القسمه أيضاً ، ثم اتجه بعد ذلك إلى الحمام .

ودفع باب الحمام فإذا به مغلق من الداخل .
ثم دفعه مرة ثانية .

جالك الموت يا تارك الصلاة ، والله وقعت واللى كان
كان ..

أجل ! لقد سمع الشاذلى بأذنيه صوت « الدش » وهو ينهمر .

أخيراً وقع المجرم ، وفى حالة تلبس .

شهر بأكله وهو يستغفلنا جميعاً . . . ويتسلل إلى الحمام ليأخذ دشاً أثناء غيابنا فى الطابور .
إنه أحد الطبائخين أو أحد المراسلات .

وصاح الشاذلى وفى صوته رنة انتصار :

— افتح يا حيوان .

ولم يسمع أى رد . . بل استمر صوت « اللش »
ينهمر ، وقطرات الماء تطرق الأرض وجسم المستحم .

وعاد الشاذلى يصيح مهدداً :

— افتح بقول لك .

ولكن لم يجب أحد . . ولم يفتح الباب .

وتراجع الشاذلى عن الباب قليلاً . . وبكل قوته دفع
الباب بسكته . . فانفتح . . واندفع هو إلى الحمام . . رافعاً
سوط الركوب بيده . . ليهوى به على الجانى . . ويؤدبه
تأديباً سريعاً .

تعالى الصيحات ، وتعالى الضربات :

— آى .

— آى يا ابن الكلب . . . أmaal فالح كل يوم تخش

تستحمى وتغرق الحمام .

— أنا أصلى . . .

— أصلك إيه ؟ أصلك حيوان .

— أنا . .

— انت إيه ؟



— أنا قريب علام .

— قريب مين ؟

— قريب علام .

— يا نهار إسود . . وإيه اللي جابك هنا .

وفي تلك اللحظة سمع الشاذلى صوت علام . . وأدرك
ماذا يمكن أن يحدث له من علام إذا عرف ما فعله بقريبه ،
فترك الحمام . . وانطلق يعدو فى الاتجاه الآخر . . هارباً
من الميس .

وخرج قريب علام من الحمام يصرخ ويتأوه ، ويسأل
علام لم لم يخبره أن الاستحمام عندهم جناية . . واندesh
علام ووقف يستمع إلى ما حدث ثم انطلق يعدو فى أعقاب
الشاذلى .

ويعلم الله ما فعله به .

ويعلم الله كذلك ماذا كان رأى قريب علام فينا بعد
العلاقة التى أخذها لمغامرته بالاستحمام .

أغلب الظن أنه كان يفضل المبيت على قارعة الطريق ..
فقد كان يصبح أكثر أمناً !!



وصلنا القرن سوا . . الواد سلم الورقه
بتاعته للفران ، وأنا سلمته ورقتي . .
ورجعت له قرب الظهر كانت اللجمه استوت . .
وروح البيت أكات أكلة عمري ماكات
زيها . .

صحت الفرت . .

مفتاح ١١ ! .

لهفت

— رحت القرن ١٩ .

تلك كانت الصيحات التقليدية التي كانت تنطلق كل يوم في شارع خيرت متبادلة بين حنجرتين قويتين مجلجلتين ، الأولى مستقرة على أحد مقاعد ترام رقم ١٢ ، والثانية قابضة على مقعد على رصيف الشارع أو ممسك صاحبها بأحد الأمواس أو ماكينات الخلاقة يحول بها ويصول في أحد الذقون أو الرؤوس .

كان صاحب الحنجرة الأولى هو أبي . . المرحوم محمد السباعي . . أما صاحب الثانية فقد كان الأسطى محمود (المزين) ! .

كان أبي يركب الترام من ميدان السيدة ويجلس على مقعده مهيباً محترماً بين الركاب بجسده الضخم القوي الممتلئ ووجهه الأبيض المشرب بحمرة وبذلته الأنيقة وياقته المنشأة والطربوش الطويل يحجب معظم جبينه ويستقر على حاجبيه . كان يجلس بين الركاب في نفخة واعتداد . . ويتحرك به الترام في شارع خيرت . . حتى يمر بالبقعة المعينة فتنتطلق منه صيحة مدوية في جده واهتمام :

— هفقت مفتاح ؟ ١٩ .

وفي لمح البصر ترتد إليه الصيحة كأنها صدى الصوت
منطلقة من الأسطى محمود ، وقد وقف بقميصه وبنطلونه
وصلعته اللامعة يصيح متسائلاً في مثل جد أبي واهتمامه :

— رحت الفرن ؟ ١٩ .

وهكذا تنطلق الصيحتان المتسائلتان المتبادلتان والترام
معنأ في سيره .. كأنهما رصاصتان طائشتان لا تنتظران
جواباً .. وترسم على وجوه الركاب دهشة ويحاولون عبثاً
أن يفهموا سبباً لما حدث أو معنى لما قيل .. وقد يتساءلون
فيما بينهم عما قال أبي وعما قال الأسطى محمود .. وقد ينبئهم
خبير سبق له الركوب مع أبي من قبل بأن ما قيل هو :
« هفقت مفتاح » و « رحت الفرن » ، ولكنه يعجز عن
تفسير معناهما وعما يقصد بهما .

ولست أشك في أن القارئ مهما بلغ به الذكاء إلا
يتساءل في عجب وحيرة مثل الركاب ولا أظنه واجداً لسؤاله
جواباً شافياً .

إن كلمة هفقت (بقاء مشددة) تعنى في لغة محمود المزين
وفقت .. والأسطى محمود لغته الخاصة التي تحتاج إلى قاموس
لتبيانها .. وهي تبدو في نطقها كأنما يقصد بها الهزل والدعابة

في الوقت الذي ينطقها الرجل في منتهى الجهد . . ولا يقصد بها هز لا قط . . لسبب واحد هو أنه لا يستطيع أن ينطق سواها لأنه أصيب بنزلة جعلت لسانه « ملووقاً » فتعذر عليه النطق السليم .

وكان الرجل من تلقاء نفسه مخلوقاً خفيف الدم مرحاً مهازراً . . وزاده ثقل لسانه واعوجاج نطقه خفة فوق خفة . . وأصبح حديثه مهما حاول أن يكون جاداً حديثاً فكاهياً مضحكاً .

كان الأوسطى محمود ينطق « الملوخية » « ملوخله » . . فإذا أراد أن يقول أنه سيتغدى ملوخيه بالفراخ . . كان قوله : « ملوخله بالفيران » . . وإذا أراد أن يضيف أن الحلو « كنافه » قلبها لسانه إلى « كناسه » فأضحى غداؤه الذي يصفه على سبيل التفاخر هو « ملوخله بالفيران والحلو كناسه » .

ولم يكن أبي يتخذ الأوسطى محمود مجرد حلاق . . بل كان يتخذه سميراً أو مهرجاً وصديقاً وفياً ، ولم يكن يذهب إليه لمجرد الخلقة ، بل كان يتخذ حانوته أشبه بمقهى ، يقضى فيه معظم أوقات فراغه فيتلهى بمشاهدة الرائحين والرائحات والغادين والغاديات ويتبادل النكات الطائفة مع الأوسطى محمود إذا كان منهما في الشغل ، فإذا ما شطب جلس معه يسامره ويسليه .

وكان أول عشور والدى على الأسطى محمود . . أو
اكتشافه له . . أقول عشوراً واكتشافاً . . لأن والدى كان
يعتبر الأسطى محمود لقطة أو كنزاً . . وكان يفضل صحبته
على صحبة رئيس وزراء ، ويعتبر عن إيمان أنه خير وأفضل
وأذكى وأظرف من معظم مشاهير البلد الذين كان يسميهم
بالأدعياء . . أقول إن أول عشور والدى عليه كان بصالون
الأسطى ابراهيم الحلاق على ناصية شارع السدالبراني وشارع
التلول والملاصق لحانوت الفكهاني الكائن في شارع التلول .
وكان الأسطى محمود وقتذاك عاملاً في صالون الأسطى
ابراهيم . . فاكتشف فيه أبي مواهبه . . واتخذ من الصالون
مكانه المختار .

والمدهش أن الأسطى محمود — باعتراف أبي نفسه —
لم يكن حلاقاً ماهراً بل كان أبي دائماً يتهمه بشغل اليد . .
وكان كثيراً ما يسبب له جروحاً في ذقنه حتى انتهى به الأمر
إلى أن يتخذ له حلاقاً آخر للحلاقة مع بقاء الأسطى محمود
في مركزه الممتاز كسمير ومضحك وصديق . . ومع استيلائه
على أجرة الحلاقة الدورية المنتظمة دون أن تمس موساه
ذقن أبي أو يمس مقصه شعر رأسه .

وفي ذات يوم فوجيء أبي بنخاو صالون الأسطى ابراهيم

من الأسطى محمود . . فأصابه الدهش وتساءل عنه . . فأنبأه
صاحب الصالون بأنه طرده . . وأنه أحضر بدله صنائعاً
ممتازاً أكثر منه مهارة وطلب منه أن يجربه .

ولكن أبى لم يكن يعتبر الأسطى محمود حلاقاً . . بل كان
يعتبره عبقرية ممتازة . . وفيلسوفاً كبيراً لم يجد الدهر مثله . .
وتعجب كيف لم يقدر الأسطى إبراهيم مواهبه وكيف طرده
بمثل هذه السهولة . . دون أن يبدو عليه أسف ولا حزن . .
ودون أن يغلق الحانوت حداداً على ذهابه . . وكيف يدعى
أنه أحضر بدلاً منه إنساناً ممتازاً أكثر منه مهارة ؟ ! .

ولم يجب أبى على دعوة صاحب الصالون . . بل هزّ
رأسه فى حسرة وأسى . . وغادر الصالون دون أن يحاول
أن يخطو به بعد ذلك مرة واحدة .

وذهب يبحث عن الأسطى محمود طيلة يومه حتى عثر
عليه فى بيته بأحد أزقة البغالة . . ولم تمض بضعة أيام حتى
كان الأسطى محمود قد افتتح صالوناً خاصاً به فى الناحية
الأخرى من شارع السد لا يبعد كثيراً عن صالون الأسطى
إبراهيم . . وكان أبى يتخذ منه مكانه المختار واضعاً ساقاً على
ساق فى مدخل الصالون .

وسأل أبى الأسطى محمود عن سبب طرده من صالون

الأسطى إبراهيم ، فهز الأسطى محمود رأسه وقال أسفاً :
— مالهش فى الطّين (يقصد الطيّب) نصيب . راجل
ضلالى ونيتته وحشه .

— أيوه مفهوم . . لسكن إيه السبب إالى خلاه طردك ؟
— آل إيه بيقول إنى هفقت مفتاح .
— بيقول إيه ؟ .
— هفقت مفتاح .

وبعد الشرح فهم أبى أن الأسطى محمود طرد لأن صاحب
الصالون وجد النقدية فى صندوق المحل ناقصة فاتهمه بأنه وفق
مفتاحاً فتح به الصندوق وأنه سرق ما به .

واستغرق أبى فى الضحك على تهمة التهفيق التى اتهم بها
الأسطى محمود والتى كانت السبب فى طرده وقطع عيشه .
ومن ذلك الحين والكلمة لا تفارق لسان أبى . . فهو
لا يكاد يلتقى الأسطى محمود ، حتى يصيح به :

— هفقت مفتاح ؟

حتى أضحت بينهما كأنها سلام عليكم !
وكان أبى يأخذ فى شرحها كل مرة لمن لا يعرفها . حتى
ضج الأسطى محمود وقال لأبى :

— ياسى سباعى . . الله لا يسبك كفايه فضايح . .

ما بلاش السيره المهيبه دى ! دى ما كانتش كلمه .
ومع ذلك فقد استمر أبى يستعملها كتهجيه للأسطى محمود
حتى وجد الأسطى محمود رداً لها .
كان ذلك عند ما أقبل عليه أبى ذات عصر متהלلاً
الأسارير ، ضاحك السن ، وصاح بالأسطى محمود :

— هنفقت مفتاح ! .

فأجابه الأسطى محمود :

— و عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. مالك ميسوط
قوى كده ؟ خير إن شاء الله .

— خير قوى .. ما فيش بعد كده خير .

— حصل إيه .. أخذت درجه ؟

— أحسن .

— أخذت فلوس من الحاج مصطفى (الحاج مصطفى محمد
صاحب المكتبة التجارية الذى نشر له معظم كتبه ومنها
رباعيات الخيام) .

— أحسن .

— شفت بنت حلوه ؟

— أحسن .

— فيه إيه أحسن من كده ، يا أخى قوللى بقى وريحنى !

— أكلت ورقة لحمه معتبره .

— ودى حاجه غريبه . . ! ما انت كل يوم والتانى
بتاكل ورقة لحمه .. هوّا انت وراك حاجه غير ورق اللحمه
وورق السكتب ؟ ١٩ .

— لا .. لا .. دى حاجه تانيه خالص .. دى ورقة لحمه ممتازه
غير اللي كنت باكله خالص .. حاجه ما تخطر ش على البال .
— يعنى إيه ؟ مش ورقة لحمه ، والا ورقة بنكنوت ؟ ١٩ .
— لحمه .. لحمه يا غبي .

— يعنى لحمه من السما .

— من الجزار يا حمار .

— طيب كل مره ما انت بتجييها من عند الجزار . .
والا بتجييها من عند باتا ! .

— دى ورقة ملوكى . . ما وردتش .

— إيه بس حكايته ؟ .

— أنا أقول لك حكايته . . النهارده رحت عند سلامه
الرباط الجزار وقلت له يوضب ثلاثة أرطال فى ورقة زى
العاده علشان أودهم الفرن . . قعد يلم من هنا ومن هنا ،
حته من بيت السكلاوى وحته من الفخده ، وإيشى عضم ،
وإيشى شغت لغاية ما كل الثلاثة الأرطال وابتسدا يوضبهم

وخرط عليهم البصلة وحط البهارات والتجايش ولفهم في
الورق وقال لي اتفضل . . حاجه معتبره قوى .

— هي دى الورقة المعتبرة ؟ .

— لا . . مش هي .

— أمال منين الورقة المعتبرة ؟ .

— الورقة المعتبرة لقيته عمال يوضب فيها على جنب . .

حتة قطعية نظيفه زى اللوز . . تلاقى حتة العضم ملبسه باللحم
وفيه راق دهن زى القشطه . . وقعد يقسم فيها ويوضب
ويخرط عليها ويرش ويحبش فاستعجبت وسألت الواد الصبي :
— الورقة دى لمين ؟ .

فرد الواد بصوت واطى :

— دى له . . للمعلم سلامه نفسه .

وقال الأسطى محمود معلقاً على قوله : « أظنك اتحسرت »

— قوى . . وفضلت واقف أبص لها وأبص للورقة

بتاعى ومش قادر أتكلم .

— الله يكون فى عونك .

— المقصود لف الورقة واداهها للواد الصبي علشان

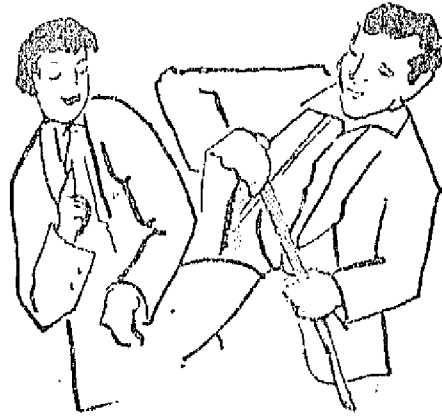
يودىها الفرن وأنا أخذت الورقة بتاعى علشان أودىها الفرن .

— وبعدين ؟ .



— ولا قبلين . . . وصلنا الفرن سوا . . . الواد سلم
الورقة بتاعته للفران . . . وأنا سلمت ورقتي . . . جه الفران
يدخل الورقتين قلت له حاسب إوعى الورقتين يتلخبطوا
لحسن دول زى بعض . . . والا أقول لك . . . هات لما أعلمهم
أضمن ، وسحبت الورقتين ورحت قاطع من طرف واحده
منهم حته ورقة وقلت له : المقطوعه دى تبقى بتاعتي ، والثانيه
بتاعة المعلم سلامه . . . وبعدين سبت الفرن ورجعت له قرب
الظهر كانت اللحمه استوت . . . أخذت الورقة المقطوعه
وراحت البيت أكلت أحسن ورقة لحمه أكلتها فى حياتى .
— إيه الكلام ده ؟ إنت مش بتقول أخذت الورقة
المقطوعه بتاعتك ! .

— أيوه أخذت الورقة المقطوعه لكن ما كانتش بتاعتي
لأنى لما جيت أعلم الورقة قطعت ورقة المعلم سلامه .
ومنذ ذلك اليوم . . . وحتى بعد انتقاله بصالونه إلى
شارع خيرت والأسطى محمود يعرف كيف يرد التحية . .
فلا يكاد والدى يهتف به : « هفقت مفتاح » .
حتى يجيبه بأعلى صوته : « رحت الفرن » .
فإذا سأله أحد شرح له المسألة بخذايرها .
وقال لأبى : « واحده بواحد والباقيء أظلم » .



ألقى المستر تويدي نظرة عابرة على
الطلاب . . وتوقفت عيناه برهة أمام
الأوسطى عبده ، فقد كان الوجه جديداً على
عينيه ، وكان منظر الأوسطى عبده برقبته
الطويلة ووجهه الأعجم وعينيه المذعورتين ،
منظراً غريباً .

الأوسطى عبده والمستر تويدي ..

أظن أن هناك حديثاً يشغل الناس في هذه الأيام
كحديث الغلاء ، وعندما يتحدث الناس عن
الغلاء فلن يخلو حديثهم من مقارنة بين أسعار اليوم وأسعار
الأمس ، وضرب الأمثلة المتعددة على ارتفاعها الفاحش
الآن وانخفاضها العجيب فيما مضى .

ولم يكن المجلس الذي ضم ثلثتنا بالأمس ليختلف عن
غيره من مجالس الناس ، فسرعان ماساقنا الحديث
ذو الشجون إلى ذكر الغلاء ، وبين عشية وضحاها انقلب
الحديث إلى مباراة في ضرب الأمثلة لغلاء اليوم ورخص
الأمس ، وانهاالت الشكوى من النفوس مريرة ، والسيخط
لاذعاً حاراً .

قال أحدها وهو يهز رأسه أسفاً :

— لقد أصبحت الحياة لا تطاق . . لم يعد هناك شيء
محتملاً ، لا مأكلا ولا ملبس . . من يصدق أنى منذ أسبوع
أردت أن أفصل بدلة عند « جباى » الترزى . . فطلب منى
خمسة عشر جنيهاً ، للتفصيل فقط ؟ !

فسأله آخر متعجباً :

— خمسة عشر جنيهاً !! الله يرحم زمان ، عندما كانت

البذلة لا تكلفنا أكثر من مائة وخمسين قرشاً قشاً ،
وتفصيل !

ورد عليه الأول ، وهو مهندس معروف :
— إى والله .. مائة وخمسين قرشاً ، كانت أقصى
ما تتكلفه البذلة ، وكنا نستكثرها على الترزى وعلى جيو بنا
فنأبى أن ندفعها إلا بالتقسيط .
وضحك الأصدقاء ...

واندفع صاحبنا يقهقه وقد تذكر حادث مطاردة الترزى
لصديقه أحمد أبو الفضل . وأخيراً تمالك نفسه وأخذ يقص
الواقعة فقال :

كان ذلك منذ خمسة وعشرين عاماً ، وكنا وقتذاك
طلبة فى المهندسخانة ، وقد اعتدنا أن نجتمع فى بيت صاحبنا
أحمد أبو الفضل بشارع النواوى فى البغالة حيث كان بالبيت
حجرة منفصلة كنا نأوى إليها للسمر والاستذكار .

و ذات ليلة وقد انتظم عقد ثلثنا داخل الحجرة ، وبدأنا
نستعد لمواصلة الاستذكار .. إذ طرق الباب طارق .
وصاح أبو الفضل آمراً بصوته الجهورى « أدخل » ظاناً أن
الطارق هو « عم محمد » البواب يحمل إلينا القهوة أو الشاى .
وهنا أطل علينا وجه شاب به كثير من ذعر وكثير من

خجل ، وجه نحيل أعجف بارز عظام الوجنتين ، غائر العينين ، وبدأ صاحب الوجه يدفع الباب ويتقدم في الحجرة رويداً رويداً حتى مثل أمامنا . وسألناه عما يريد فقال :
— أنا الأسطى عبده الترزي .

— تشرفنا يا أسطى عبده .

وانتهالت عليه التحيات والسلامات من هذا النوع التهكمي .

فلما انتهينا من تحياتنا الساخرة . . بدأ الرجل في شرح مطلبه وتفسير زيارته ، ففهمنا منه أنه قد فتح حانوتاً للتفصيل على ناصية شارع سليم ، وأنه قد مضى عليه شهر والحالة راکدة ولم يدخل حانوته أحد ، وأنه لم يستطع أن يحصل حتى على إيجار الدكان . . ولما كنا « الأفندية » الوحيدين الموجودين في (الحقة) فقد لجأ إلينا عسى أن نجبر بخاطره وأن (ننفعه) !

ولم يكف الأسطى عبده ينتهي من شرح حالته واستعطاف قلوبنا حتى قرن القول بالفعل وهجم علينا وفي يده (المازورة) يأخذ المقاسات المطاوعة لكل منا ويدونها في نوتة صغيرة أخرجها من جيبه . . وفي غمضة عين كان الرجل قد أخذ مقاساتنا جميعاً .

ونظر أبو الفضل إلى الأسطى عبده نظرة رثاء وعطف
وهو يضع المازورة في جيبه وقد أشرق وجهه بالأمل
وابتسم ابتسامة الفوز .

وأخذ أبو الفضل يشرح له قائلاً :

— بقى اسمع أما أقولك يا أسطى عبده ، ماتت عبث
نفسك معانا . . إحنا البدله بتأخذ لها على جتتنا خمس سنين
خدمة ، زى العسكرية بالضبط ، وبعدين لما تطالع رديف نبقى
نفسك نفصل بدلة جديدة ، ودلوقت أقدم بدلة على أى
واحد منا ماتزידش عن سنتين خدمة . يعنى بعد ثلاث سنين
ربنا يدريك العمر وتيجى تزورنا إن شاء الله .

— كل خمس سنين بدله ؟ إزاي يا بيه الكلام ده ! دا
انتم أسياد الناس . . . أنا حاعمل لكل واحد منكم بدلة
تليق بالمقام .

— المقام محفوظ يا أسطى . . بس المسألة إن العين
بصيره واليد قصيره . إحنا قادرين نجيب علبة سجائر لما
حان فصل بدله ؟

— دى الحسبة كلها مائة وخمسين قرشاً يا بيه ، مش
ضرورى تدفعهم مرة واحدة . إدفع اللى تقدر عليه . . .
إدفع خمسين قرش كل شهر ، أو خمسة وعشرين .

وقبل أن نجيب الرجل ، ألقى علينا تحية سريعة ثم
أولانا ظهره وانصرف هارباً .

ولم يمض أسبوع حتى كانت البذلات الخمس مستوية
على أجسادنا .

وأقول الحق أنها كانت جيدة التفصيل ، فاخرة القماش
وأننا رحنا نختال بها في المدرسة كأية ثلة اراستقراطية
وأن زملاء ظنوا أننا عثرنا على كنز .

وعندما حل أول الشهر بدأ الأسطى عبده التحصيل ،
فأعطاه البعض وتهرب البعض الآخر . واستمر في التحصيل
شهرأ بعد شهر ، فكان كل منا يعطيه شهرأ ويزوغ شهرأ ،
إلا واحداً منا كان يزوغ على طول الخط فلم يعطه من ثمن
البذلة ملياً واحداً .

أجل ، لقد كان أبو الفضل أكثرنا اختيالاً بالبذلة ،
وأكثرنا هرباً من الرجل ، وفراراً من الدفع .

كان لأبي الفضل مطالب خاصة كثيرة تستنفد كل
مصرفه ، فقد كان مدمناً على السجائر ، وكانت له
(غطسات) في « أمكنة ما » تستنفد منه ما تبقى من النقود
بعد ثمن السجائر ، ولذا فلم يحدث قط أن توفر في جيبيه
ما يستطيع أن يسدد منه قسط البذلة .

ولم يكن الأسطى عبده من النوع الذى يئأس أو يكل ، بل كان ملحاحاً مثابراً يطارد صاحبنا فى كل حل وترحال . . لا تكاد الشمس تؤذن بالشروق حتى يتخذ مكانه على باب البيت ، فيظل مرابطاً حتى الضحى ، وحتى يكتشف أن أبا الفضل قد هرب من إحدى النوافذ . فإذا ما كان اليوم التالى رابط تحت النافذة ، فيفر أبو الفضل من الباب ، وهكذا يستمر الأسطى عبده فى المطاردة حائراً بين النافذة والباب حتى يصمم أخيراً أن ينقل ميدان المطاردة إلى المدرسة ، فيفاجئ أبا الفضل ذات صباح أمام باب المدرسة .

وما زلت أذكر ذلك اليوم جيداً وقد أشرفنا على المدرسة وسار أبو الفضل بيننا يعلننا مفاخرأ أنه قد عرف كيف يدوخ الأسطى عبده حتى يئس منه ومن مطاردته له وأنه اليوم قد خرج من البيت فإذا بالحصار قد فك ، وإذا بالعدو قد عاد إلى قواعده فى شارع سليم !

ولم يكد أبو الفضل يتم حديثه حتى برز لنا الأسطى عبده من وراء شجرة ضخمة بجوار باب المدرسة كان يختفى وراءها .

وكان هجومه على أبي الفضل مفاجئاً ، أصابه بغير قليل من الاضطراب والارتباك ، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه

وهذا روعه ، ومع يده الأسطى عبده مرحباً . . وقال
في بشاشة :

— أهلاً . . أهلاً الأسطى عبده ، فينك من زمان
ماحدثش بيدشوفك . . أنا كنت لسه جايب سيرتك عشان
عايز أديك قسط البدلة . أنا محضر ولك في البيت . ابقي فوت
على في أى وقت .

— بيت إيه يا بيه ! دا انت دو ختنى تحت البيت وحيرتنى
من الباب للشباك . دا انت مقابلتك نادرة من نواذر الزمن .
أنا حافضل معاك لغاية ما ترجع البيت سوا .

— مفيش لزوم تعطل نفسك يا أسطى عبده . . أنا
ماحدثش أعطاك .

— أبدأ ، أبدأ ، مفيش عطله أبدأ ، حاستنا لغاية
ما ترجع سوا .

— نرجع سوا ؟

— أيوه . . نرجع سوا .

ولم يكن أبو الفضل ليغلب على أمره ، فوافق الرجل
على أن يبقى معه ، وسأله أن ينتظره خارج المدرسة آملاً
أن يخدمه ويستطيع (التزويغ) من باب آخر ، فقال له
ببساطة :

— طيب يا أسطى عبده ، أمرك . . مادام عايز تستثنائي
خليك مستنى . أقعد على البوابة لغاية ما اخرج .
— بوابة مين ؟ إيدى فى إيدك . . أنا مش حاخليك
تتورب عن عيني . دانت لقاك مش بالساهل . أنا مافرطش
فيك أبداً بعدما التقيتك .
وكنّا قد وصلنا إلى باب المدرسة واجتزناه ودلف معنا
الأسطى عبده .

ورأى أبو الفضل أن من الخير أن يتجنب الفضيحة
وألّا يحاول حجز الرجل على الباب بالقوة ، فتركه يدخل
معنا . . .

ووصلنا إلى الفصل ، ودخلنا والأسطى عبده فى أعقابنا
وجلسنا على التخت ، وبجوار أبي الفضل جلس الأسطى
عبده ، مصرأ على أن لا يتركه لحظة واحدة .

وكانت الحصة الأولى عندنا فى ذلك اليوم رياضة ، وكان
مدرس الرياضة وقتذاك فى المهندسخانة هو المستر تويدي .
وكان الرجل نظامياً جاداً . وكانت حصته هى الوحيدة التى
نجلس فيها منتظمين ويجلس كل طالب فى مكانه المخصص له
وفى نمرة التى أعطاهها له المستر تويدي .

وكانت الحصة تبدأ فى التاسعة ، ومن عادة المستر تويدي

أن يكون في الفصل في بدء الحصة بالضبط فيخلق الباب ورائه بعد دخوله . . ثم يفتحه في الساعة التاسعة وخمس دقائق ليدخل المتأخرون ويغلقه بعد ذلك فلا يفتحه إلا في نهاية الحصة ، وهكذا كان يعطى للطالب فرصة للتأخير خمس دقائق أما بعد ذلك فلا يقبله في حصته .

وفي التاسعة بالضبط كان المستر تويدي يجتاز باب الفصل ، وكان كل منا قد جلس في مكانه صامتاً ساكناً لا ينبس ببنت شفة واضعاً أمامه على الدرج الكتب المطاوب استعملها في الحصة .

وكان الوحيد الذي لا يضع أمامه كتباً هو الأسطى عبده التري ، وقد خشي أبو الفضل أن يكشف المستر تويدي أمره فأزاح كتبه من أمامه ووضعها أمام الأسطى عبده

وهكذا جالس الأسطى عبده على مقعده — كأحد الطلبة — جاداً صامتاً وأمامه الكتب المطاوبة في درس التفاضل والتكامل .

وكان المستر تويدي انجليزياً مهيب المنظر ، أحمر الوجه أشعث الشعر ، فارع القامة ، يزيد من مهابته منوكل يضعه على إحدى عينيه .



ولست أشك في أن الأسطى عبده قد تملكه من منظر
المستر تويدي جزع شديد ، فقد رأيتة يحملك فيه وقد اصفر
وجهه ، وأحس بمدى حرج مركزه .

وألقي المستر تويدي نظرة عابرة على الطلاب ، وتوقفت
عيناه برهة أمام الأسطى عبده فقد كان الوجه جديداً على
عينيه ، وكان منظر الأسطى عبده برقبته الطويلة ووجهه
الأعجف وعينه المذعورتين اللتين تترجرجان في وجهه . .
منظراً غريباً .

ولكن المستر تويدي لم يقل شيئاً ، فقد ظن الأسطى
عبده طالباً جديداً ولا سيما أن كتبه كانت موضوعاً أمامه .
وكان من الممكن أن يمر الدرس بسهولة على الأسطى
عبده لو أن المستر تويدي كان كبقية خلق الله من مدرسي
المهندسخانة الذين يلقون المحاضرة على الطلاب ثم يغادرون
الفصل بسلام . . .

ولكنه لم يكن كذلك ، بل كان يأبى إلا أن يبدأ درسه
بالسؤال في الدروس السابقة ماراً على الطلبة ملقياً على كل
واحد منهم سؤالاً بالدور .

وبدأ المستر تويدي أسئلته في التفاضل والتكامل
ووصل الدور إلى الأسطى عبده .

وانطلاق السؤال من المستر تويدي الأحمر المهاب
ذو المنوكل ليستقر على الأسطى عبده الغلبان السكحيان الذي
ينتفض ويرتجف .

ووقف الأسطى عبده التريزي ليجيب على سؤال عويص
في التفاضل والتكامل .

وكانت إجابة السؤال على ما أذكر (د . س) على
(د . ص) ، وكانت بطون الطالبة تصطنخ بالضحك .
وبدأت المحاولات لانقاذ الأسطى عبده فأخذت الأصوات
تهمس من حوله بالإجابة قائلين له :

— شد حيلك يا أسطى عبده . . ما تخافش . . المسألة
بسيطة خالص . . قول (د . س) على (د . ص) .

ولكن المسألة لم تكن بالنسبة للأسطى عبده بسيطة
قط ، ولم يستطع ذهنه أن يقتنع أو يفهم حكاية (د س) على
(د ص) . . ولكنه أمام نظرات المستر تويدي النارية
المصوبة إليه ألقى الإجابة حسب ما يمكنه أن يفهمها ، فقال
وهو يرتجف :

— دى س ودى ص .

واقتنع المستر تويدي وأشار له بالجلوس ، وظلت
الأسئلة تلف ثم تستقر مرة أخرى على الأسطى عبده

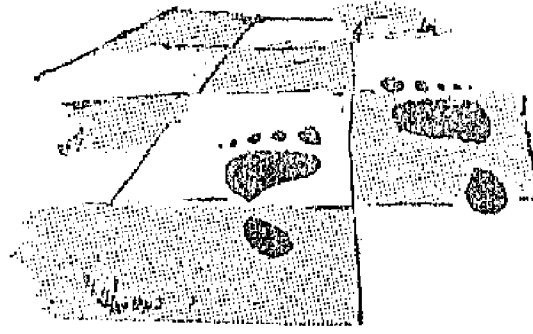
حتى (نشف دمه) وبقى كريشة في مهب الرياح ، وكانت
تتعالى الأصوات هامة حوله بالإجابة فيلتقطها كالبيغاء
ويطلقها متوكلا على الله ثم يرتدى على المقعد غارقاً في عرقه ،
حتى انتهت الحصة ، وانتهى معها الأسطى عبده .

إي والله . . لقد أغمى على الأسطى عبده بعد خروج
المستر تويدي ، وعندما أفاق بكى بكاء حاراً ، وأقسم يمينا
ألا يدخل مدرسة المهندسخانة بعد ذاك ، وألا يطالب
أبو الفضل بقسط البذلة .

وأثر فينا بكاء الرجل . فاكتمبنا كل منا بخمسة قروش
وجمعنا له ثمن البذلة .

وكانت آخر مرة يحاول الأسطى عبده التفصيل لنا
بالإكراه .





قبل أن أبدأ السرد أقدم اعتذاري الى
بطل القصة — عمى ، وحامى — « طه
السباعي باشا » لأنني لم أستاذنه في النشر
راجياً اياه ألا يصدر بيا ناً يكذبني فيه ..
لسبب بسيط .. هو أن الناس تعلم تماماً أنه
ليس هناك أكذب في هذا البلد . . من
بيانات التكذيب .

فني بيتي معا ..

و القصة والعربة عائدة من الإسكندرية تنهب
لنهمرا الطريق الصحراوي نهياً ، والسائق ينتهز فرصة
سهو العم بين آونة وأخرى ، فيقفز برقم عداد السرعة إلى
ما فوق المائة .. حتى وصلت العربة مدخل القاهرة وأخذت
تتأوى في طريق الهرم ، بين حفر مصلحة التنظيم وخنادق
مصلحة المجارى ، ومن آن لآخر تعترض العربة علامات
الخطر ، وتصطدم الأعين بعربة مقلوبة في إحدى حفرات
المجارى أو مصطدمة بأحد فوانيس النور فوق الرصيف .
ووصلنا أخيراً إلى البيت في منشيّة الطيران .. متعبى
الأعصاب منهكى الأجساد .

وهبطنا من العربة ، وعبرنا الحديقة إلى باب البيت
وأخذت أتحمس ثقب الباب فى الظلمات حتى دسست فيه
المفتاح ثم دفعت الباب .. وبدأنا نتلمس طريقنا فى حذر
وخشية ، وسمعت العم يقول :

— أكباس الكهرباء موضوعة أمامك على الكرسي
الموجود أسفل السلم .. لقد وضعتها بيدي قبل السفر .
وبعد برهة قصيرة كنت أضع الأكباس فى محلها الواحد
بعد الآخر .

كان نزع الأكياس هو أول شيء يحرص عليه العم حتى لا يحدث مس في أسلاك الكهر باء فينتج عنه - لا سمح الله - حريق يودى بالبيت . . وكان ثاني شيء هو إغلاق عداد المياه .

ولم أكد أعيد الأكياس إلى محلها حتى أضاءت الكهر باء معظم حجرات البيت ، فقد كانت مفاتيحها غير مغلقة . وقبل أن أطفئ اللهب التي لا تحتاج إلى ضوءها وجدت العم قد أخذ يتجول متمهلاً في أنحاء البيت ، وهو يلقي عليه نظرة إعجاب ، ثم مد سبابته فمسح بها إحدى المناضد ثم مسح بها الأرض وأخذ يمر بها على الأثاث قطعة قطعة ، وأخيراً قال وهو يهز رأسه في خليط من تعجب وأسف وغبطة :
— أنظر . . لا أثر هناك للتراب .

ومسحت بأصبعي أنا الآخر على أقرب شيء إلى وقلت موافقاً :

— أجل ! لا أثر للتراب .

— شهران . . والبيت متروك بلا نظافة ومع ذلك فلا أثر فيه للتراب . . ثم يصرون بعد هذا على نظافته كل يوم . . مجازين ، مصابون بحنون النظافة . . إنهم يقومون بالنظافة لمجرد المتعة ، إنها عندهم هواية ، أو طريقة لإغاضتنا والتكيل

بنا . . . وإلا فما معنى تنظيف الشيء النظيف ؟ . أتعرف أنهم
في عز الشتاء يدخلون الخادم يومياً بجر دل المياه لمسح
الشرفات دون أن يكون بها أثر للتراب وحاولت أن أمنعهم
عن هذا الجنون عبثاً ، حتى انتهى بي الأمر إلى أنه ليس
هناك وسيلة إلا بإزالة الشرفات كلها من البيت ؟

ووقفت أنصت إلى حملته عليهم — أو على الأصح
عليهن -- وأنا أو من مخلصاً على كل فقرة فيها .

وكانت هم . . . أو هن . . . هذه عائدة بالطبع على أهل
البيت من النساء . أعني زوجته وزوجتي ، أو بعبارة أخرى
حماتي وابنته .

وكنا متفقين تماماً في مسألة النظافة هذه ، وكنا متفقين
تماماً أن أهل البيت من الحريم مصابون — بلا جدال —
بداء النظافة . . يؤيدنا في ذلك زوج الابنة الأخرى . .
عديلى وابن عمى الأستاذ عبد العزيز مهران ، الذى لم تعد
له في حياته إلا أمنية واحدة . . وهى أن يهبى الله له فرصة
الاستمتاع بحرية الفوضى والقنارة ، والذى فكر فعلاً في
أن يستأجر شقتين ، شقة لتنظيفها زوجته ، وشقة يعيش فيها
مستريحاً كبقية خلق الله الذين لم يصابوا بجنون النظافة .
ولقد كنا — أنا والعم — أسبق منه إلى تحقيق هذه

الأمنية . . وهي أمنية الاستمتاع بحياة الفوضى والأتربة
والقذارة .

كانت عودتنا من الإسكندرية وحدنا بلا حريم لقضاء
بعض المهام في القاهرة ، وكانت هذه المهام تستغرق ما يقرب
من أسبوع .

وكان في هذا الأسبوع كل الكفاية ، لتتحرر من قيود
النظام والترتيب والنظافة .

فقد انطلقنا نعيش في الدار فساداً . . وأقول الحق ، أن
العم العزيز أثبت جدارة في هذا المضمار يستحق عليها وساماً
وأثبت أنه لا يشق له في ميدان الفوضى والهرجلة والغبار
— غبار .

لقد فاز عليّ في سباق الفوضى ، فوزاً مبدئياً . . جعلني
أياس من الاستمرار معه في ميدان السباق . . بل جعلني
أكره — في مدى يومين — الفوضى التي كنت أتوق إليها
منذ أعوام ، ولم أنسحب من السباق فحسب ، بل انقلبت إلى
إنسان مرتب أشبه بحريم الدار ، أجرى وراءه لأم شعث
ما فرق ، وأنظم ما خبط وما بعزق .

لقد وصلنا في المساء حوالى الساعة الثامنة . . ولم يحاول
أحد منا الخروج . . فكلانا مبكر في نومه . . وزادنا التعب

رغبة في النوم وزيادة في التبكير ، فلم تدق الساعة حتى كان كل منا قد آوى إلى فراشه .

ومع ذلك . . وفي مدى تلك الساعة اتى قضيناهما في الدار منذ الوصول حتى النوم . . أعان الله العزم على أن ينزل بالدار المرتبة كمية لا بأس بها من الفوضى والهرجلة . . كدفعة أولى .

وفي الأيام التالية بدأ التفنن وإخراج الروائع والآيات . لم نكن نلتقي إلا في الصباح وفي المساء ، وقت الصبح أو النوم ، وكان كلانا يضرب طول النهار في مشارق الأرض ومغاربها ، فلا نكاد نستقر في الدار — ونحن على حال من اليقظة — إلا لمساماً . . ومع ذلك — ولا أدري متى ولا كيف — تمكن العزم من إخراج روائعه وإشاعة الفوضى المثالية والتخريب النموذجي في أنحاء الدار .

وقبل أن أصف روائع الفوضى ، والتخريب «والتوسيع» أجد لازماً على وإحقاقاً للحق ، ووضعاً للأمور في نصابها أن أذكر ما قننا به من أعمال التعمير والإعاشة . كان أول ما فعلنا . . غير وضع أكياس السكرباء وفتح محبس المياه ، هو تشغيل الثلاجة وملء زجاجات المياه التي بها وشراء كمية من العنب والمانجه وصندوق ييبسى كولا ،

ووضعها في الشلاجة على سبيل التكوين ، وخرن الزاد والزواد .
وكان هذا الزاد والتكوين هو العامل الأكبر في إشاعة
الفوضى في البيت ، والمسادة الأساسية التي أعانت العم على
رسم روائعه .

لقد قلت أنه عند ما وصلنا ، لم يكن هناك أثر يذكر
للآتربة . ولكن الذي حدث — وبعون من الله وبمساعدة
العم — هو أننا لم نكد نستقر في الدار يوماً أو بعض يوم
حتى وجدنا الآتربة تعلو وتتراكم . . وإذا بالحجرات قد
أضحت أشبه بالخرائب .

وهكذا وجد من الآتربة الأساس الملائم . . أو « الباك
جراوند » المناسب .

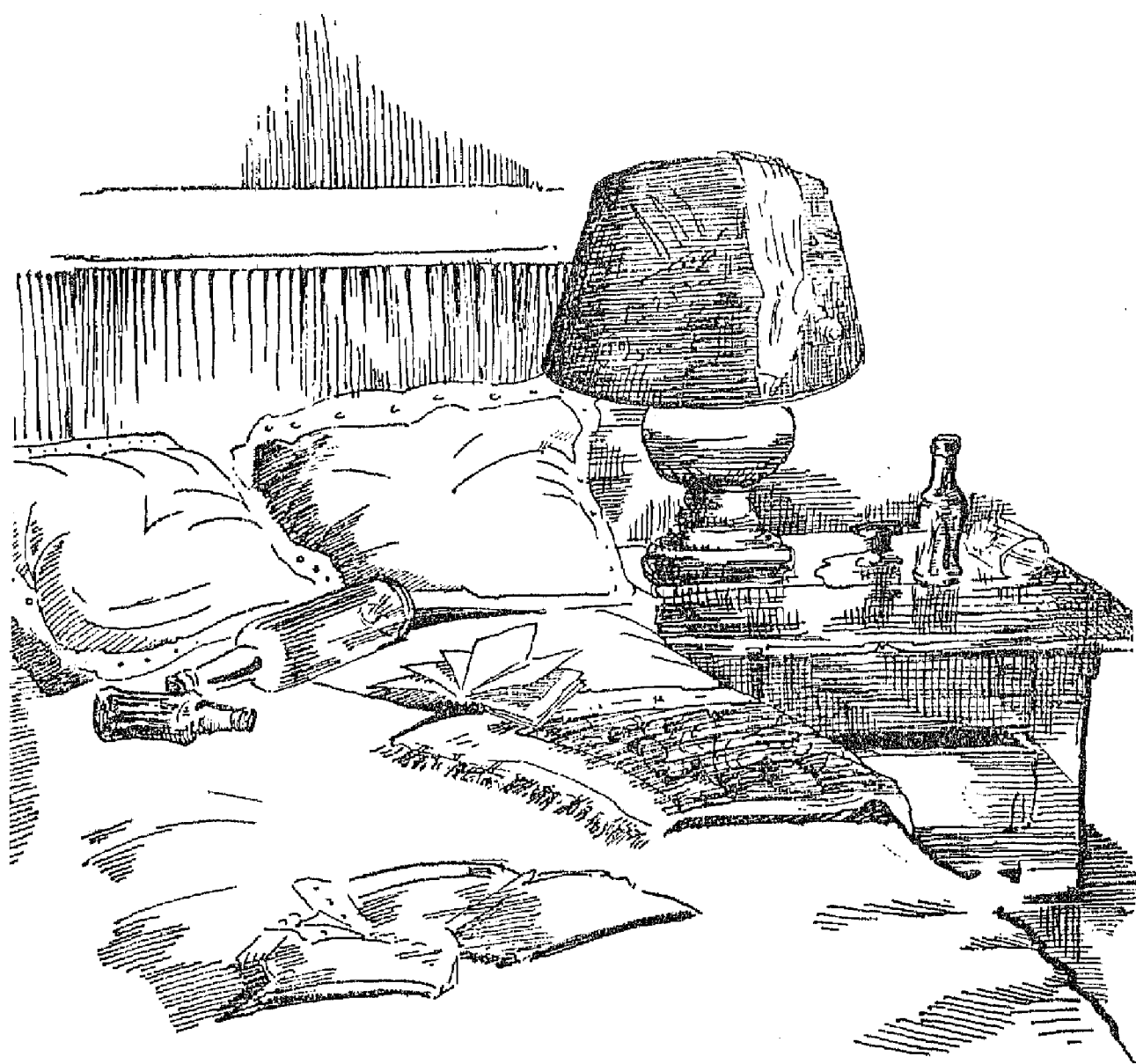
لقد كست الآتربة كل ما في البيت .. أعطته لوناً رمادياً
مغبراً لا يكاد يستبين منه لونه الأصلي . . اللهم إلا من
خلال آثار الأقدام المرسومة على الأرض ، والتي انتقلت
أثربتها فاستقرت في أقدامنا ، أو من خلال الرسوم الأخرى
التي انطبعت تحت كل المنقولات المتحركة على المناضد أو
الأرض ، فقد كان كل شيء يطبع رسمه تحته حتى كأننا نعيش
في الصحراء .

وفوق هذه الآتربة بدأ المنظر الرائع الآتي :

إحدى عشرة زجاجة يبيسى كولا فارغة مستقرة في كل مكان يخطر على البال . . واحدة فوق الفراش ، واثنان تحته ، واحدة فوق المدفأة ، واثنان في داخلها ، واحدة فوق المنضدة : واثنان متدحرجتان على بطنهما ، تدفعهما أقدامنا كلما جلسنا إلى المنضدة . . وهكذا كانت الزجاجات الفارغة تطالع البصر في كل مكان : على الأرفف والأرائك والمقاعد . . أما غطيانها فكانت عشرة منها ترصع أنحاء البيت كأنها الأوسمة والنياشين . أما الواحد الباقي فهو ما زال محشوراً في فتاحة الزجاجات . . لم يفكر أحد في نزعها من مكانه .

ويتبادل الفوضى مع الإحدى عشرة زجاجة — أو الأحد عشر كوكباً — سبعة أطباق مليئة بالماء العكر الأسود وراسب الطين ، ومخلفات عناقيد العنب من بذور وقشور وبقايا عنب عفن . . هذه الأطباق كانت من قبل مرصوفة نظيفة بيضاء فسحبت الواحد بعد الآخر لأجل أكل العنب فغسل فيها العنب ، وبقيت هي دون أن تغسل . . سوداء « ملحوسة » لزجة .

تلك هي بقايا العنب . . تعاونها في إعداد تاباوه الفوضى والقذارة . . مخلفات المانجه . . ببذورها « المبدورة » في أنحاء



البيت كأنما قد انقلبت أرضه حقلاً لزراعة المانجه ، وبالقشور
الملقاة هنا وهناك وبماء المانجه السائل في لزوجة على المنضدة
والأرض المختلط بالأتربة .. وبين كل هذه المخلفات العجيبة
تجد فردي الحذاء والشراب .. مستقرة في فراقها الخالد ..
ونفورها الأبدى .

وتتم المنظر الرائع ، أوراق الصحف المتحركة المرفقة
المتسابقة على الأرض والظروف الممزقة والأوراق القديمة
التي كتبت عليها مقالات أو بقايا مقالات .

ولكى يصبح المنظر الرائع ، شيئاً فريداً .. كان لابد
من أن تكسر ملة السرير — دون أن يفكر أحد منا بالطبع
في إصلاحها — فيميل على جانبه ، ويصبح السرير غير صالح
إلا للدرجة والدألجة .. ويعلم الله كيف ينام العم العزيز .
وهكذا تمت الروعة ، ولكنها كانت روعة صامتة ..
تحتاج إلى بعض الموسيقى لتكون تامة المعاني كاملة الإخراج .
وقدم الموسيقى في هذا المنظر الفوضوي صنبوران
للمياه .. صنبور تلفت جلده فأخذت المياه تنسكب منه
النقطة تلو النقطة ، على الواحدة .. والصنبور الآخر ، لست
أدرى ماذا أصابه حتى أخذ ين بصفة مستمرة كأنه الناي
أو صفارة الإنذار العاطلة .

هذا هو التابلوه المترب الرائع الذى أجبرنى على شراء زوجين من الشباشب - وكان هذا من ضمن أعمال التعمير - بعد أن تعذر علينا الخوض فى الأتربة وتعذر علينا أن نجد الشباشب القديمة ، وتعذر علينا كذلك أن نبقى بالأحذية حتى ساعة النوم وأن نلبسها بمجرد الهبوط من الفراش . وأخيراً انتهت أعمالنا التى حضرنا من أجلها إلى القاهرة وعز منا على السفر وجلسنا فى الليلة الأخيرة نمتع البصر بمنظر الفوضى والقذارة الذى بلغ أقصى روعته ، ووددنا أن يعرض المنظر على أهل البيت من الحریم حتى نتشفى منهم وحتى نريهن كيف انتقمنا لأنفسنا .

وأنبأنى العم أننا سنسافر فى ساعة مبكرة ، حتى نقطع الطريق فى «طراوة» الصباح قبل أن ترتفع الشمس ويبلغ الحر أشده ، وحدد للسفر الساعة الرابعة والنصف صباحاً وطلب منى أن أجهز نفسى من الليل وألا أنسى شيئاً حتى لا أسبب له عطلاً فى الصباح ، وأعطانى محاضرة قيمة فى ترتيبات السفر . . ولم ينس أن يذكرنى بمحبس المياہ . . وأكباس الكهرباء .

وجهزت حقيقتى وأعددت كل ما أنوى أخذه فى السفر مما كلفونى بإحضاره من البيت ، وفى الساعة الرابعة صباحاً

استيقظت من النوم فوجدت العم قد استيقظ . . وسرعان
ما حطمت ذقني وارثديت ملابسي . . وأصبحت على أهبة
الاستعداد ، وأخذت أراجع نفسي حتى أخذ كل ما أود
أخذه ، فقد كنت لا أريد أن أسبب - بنسياني حاجة ما -
أى تعطيل أو تأخير .

ونزل هو إلى الحديقة فهز شجرة الجواقة وجمع ماسقط
من الثمار ليأخذها معنا ، ثم حملنا كل حاجياتنا في العربة . .
ونزعت أكياس الكهرباء . . وأخذت أتحمس طريقى إلى
الخارج ، فقد كان الظلام مازال مسدلا ستوره ، وأغلقت
الباب بالمفتاح ووضعتة في جيبي . . وهممت بركوب العربة
عند ما صاح عمى :

— إنتظر . . لقد نسيت العصا .

وكان على أن أعود لأحضر العصا ، وأن أفتح الباب
وأن أضع الأكياس وأصعد إلى أعلى فأحضرها له .
ودارت الفكرة في رأسه ويبدو لى أنه أحس ببعض
الخبجل من أنه هو الذى سيكون السبب فى التعطيل ، وأنه
هو الذى نسي . . رغم أنه حذرني من النسيان وعلمني الحذر
فى ترتيبات السفر .

وسرعان ما غير رأيه وصاح بى فى غير اهتمام :

— هيا بنا . . نحن لا نريد أن نتعطل ، لا داعي للعصا . .
وأظن أنه يوجد غيرها في الإسكندرية .

واتخذنا مجلسنا في العربة ، وأخذت في التحرك بعد أن
تنازل عن العصا حتى لا يكون سبباً في تأخيرنا بضع دقائق .
ونظر في الساعة وقال :

— الساعة الخامسة إلا ثلث . . موعد مبكر . . أظننا
نستطيع أن نصل — بالراحة — إلى البيت في الساعة التاسعة ؟
وصدقت على قوله بقولي :

— أظن ذلك إذا لم يحدث عطل .

— إن شاء الله لا يحدث شيء .

وكنا قد بلغنا — عند ما قال قوله هذا — بيت مكرم
باشا وبينه وبين بيتنا ما يقرب من محطتي ترام . . ولكنه لم
يكذ يتم قوله أو على الأصح تمنيه ودعوته حتى صاح كأنما
قد تذكر أمراً هاماً :

— لقد نسيت دفتر الشيكات .

وتمهل السائق بعض الشيء . . وتوقعت أن يأمره العم
بالعودة ، ولكن الفكرة دارت في رأسه مرة أخرى . .
وبدا عليه التردد وأخذ يوازن بين دفتر الشيكات . . وبين
محاضراته عن ترتيبات السفر ، وعدم النسيان ، وعدم الرغبة

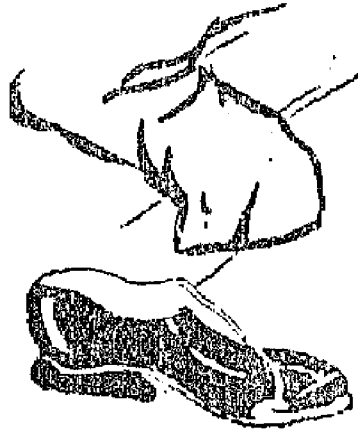
في التعطيل . . وأخيراً صاح بالسائق :

— سوق على طول . . لست في حاجة إلى الدفتر . . إن
معي من النقود ما يكفي ، ولا أظنني سأحتاج إليه .
وهكذا مرت سليمة ، وتنفس كلانا الصعداء ، واستمرت
العربة في طريقها إلى شارع الهرم . . وحمدنا الله على أن
ما نسي كانت أشياء بسيطة . . ولم يكن هو - على حد قوله -
في حاجة إليها .

وقطعنا شارع الملكة نازلي . . ووصلنا إلى ميدان
الإسماعيلية ، وعبرنا كوبري قصر النيل ، وقد اضطجعنا
في مقاعدنا مستريحين هائنين ، نحسب في أذهاننا الساعة التي
سنصل فيها ، وكيف ستكون مبكرة إلى حد أنها ستفاجيء
الأهل .

وفجأة رأيت العم يميل إلى الأمام . . ويصيح بلا تردد
ولا تفكير :

— موسى . . دوّر ، عد بنا إلى البيت .
وتلفت إليه في دهش شديد ، متسائلاً عما حدث . .
فأطرق برأسه ، وقال في يأس :
— لقد نسيت حقيبة ملابسي .



وأصبح صباح العيد .. وخرجت مع
الأطفال أنفخ في الزمارة وأنا أرتدي
الردنجوت وقد شمرت — جدني — أكلامه ،
وتنت ساق البنطلون ، وأخذت أنتقل
الهيئنا بقدمي (باق) في الحذاء ، وكأني
ألبس مركباً !!

فني ردينجوت ..

أهـ . . وسهلاً سعادة الباشا . . .
— أهلاً بك . . إزيك يا أستاذ . . .

— الحمد لله . . إلى الإسكندرية إن شاء الله ؟
— إن شاء الله . هذه أول مرة أسافر فيها هذا العام
بالسكة الحديد . . فالتائرة توفر كثيراً من الوقت .
— ولكن الأرض أضمن « أنل قدمي ظهر الأرض أنى »
— ياسيدى . . العمر واحد والرب واحد .

وهكذا استمر الحديث يجرى بيننا تافهاً متقطعاً . . .
حديث لقاء عابر في قطار . . وكنا نجلس في عربة تسكيف
الهواء في القطار السريع المسافر إلى الإسكندرية يحيط بنا
جو من الفخامة والأبهة يصغر الخد وينفخ الأوداج . ويملا
بالكبرياء أشد الناس تواضعاً ، وينفخ بالارستقراطية
أحظهم قدراً وأوضعهم شأنًا .

واضطجعت في المقعد اللين الوثير ووضعت ساقاً على
ساق . . فقد كانت تلك هي أقل جلسة يمكن جلوسها في هذا
الجوال الفاخر ، ولا سيما أن الباشا يحدثني كان قد اتخذ هذا الوضع
وعلق ساقاً على ساق رغم تعذر هذه العملية عليه لقصر
ساقيه وانتفاخ بطنه .

ويبدو لي أن من الخير — قبل أن أمعن في السرد —
أن أزيل من ذهن القارئ ما قد يكون علق بذهنه من
وهم خاطيء عن الباشا الذي نحن بصددده . فيظنه بما قلت عن
باشاويته وقصر ساقيه وانتفاخ بطنه أنه أحد تلك الأشكال
الثرية الخنزيرية الغبية المتعجرفة الثقيلة الدم الخ .

لا .. لا .. لم يكن صاحبنا قط بالشقيـل ولا الدعـى ولا
المتعجرف .. على النقيض من ذلك كان نموذجاً للذكاء
واللطف وخفة الدم وطلاوة الحديث .

كان عبدالعزیز باشا عمران أحد رجال المال والأعمال
المعروفين في البلد .. لا يزيد عمره على الخامسة والأربعين
وهو يملك عدة شركات مختلفة .. بينها بضع شركات
للأوتوبيس والدو بارة وغطيان الكازوزة ، وهو كذلك
أحد مهندسينا الناجحين النابهين الذين ركلوا وظيفتهم
الحكومية وملكوا ناصية العمل الحر . فصالوا فيه وجالوا ،
وتلألأ نجمهم وعلا صيتهم ، وأصبح يشار إلى قدرتهم
ونبوغهم بالبنان .

وكنـت أقدره بما أسمع عن فرط ذكائه وشدة عبقريته
فلما لقـيته زاد تقديري له .. لما رأيته من خفة دمه ودماثة
خلقه ...

وأخذت أرقبه وقد جلس في مقعده ووضع بين شفتيه
سيجاراً طويلاً . . وتبدلت من صديريته سلسلة ذهبية . .
وبدا وجهه منتفخاً ، ووضع على عينيه منظاراً رقيقاً
ذا إطار ذهبي أنيق ، وداخلى من منظره إعجاب كثير . .
وقلت لنفسى : إن مثل هذا الرجل جدير بالاحترام . . فقد
كسب مركزه وثراؤه بجهده وذكاؤه . . وأن مخلوقاً موهوباً
مثله كان لابد أن يلقى مآلأقى من نجاح .

وانحدر بصرى من وجهه إلى جسده . . إلى ساقيه . .
وقد وضع إحداهما فوق الأخرى . . فشمر بنطالونه
وانحسر عن جوربه الحريرى النايلون ، وجزء من ساقه
الجرداء السمراء ، وبدت لى قدمه صغيرة كقدم الطفل
وقد دسها فى حذاء (باللى) فاخر أنيق ، وأخذ يهزها هزات
خفيفة . . .

وظل الحديث يجرى بيننا متقطعاً . . سؤال من هنا . .
وجواب من هناك . حتى خطر لى أن أسأله عن قصة نجاحه .
وعن مظاهر النبوغ فى أطوار حياته . . طفولته . . وصباه
وشبابه . . إن حياة مثل هذا الرجل يمكن أن تكون درساً
نافعاً لجيل بأكمله ، وهممت بالسؤال عندما لمحت قدمه
تكف عن الاهتزاز ، ورأيت أصابعها تتحرك داخل الحذاء

كأنها في ضيق . . ثم أبصرت بيده تمتد إلى كعب الحذاء
فتخلعه برفق ثم تسحبه من القدم قليلا لكي تعطى للأصابع
فرصة التحرر ثم تعود يده إلى مكانها من جيب صدر يريته
تاركة الحذاء يتأرجح معلقاً على أصابع القدم .

ووجدت الرجل يبتسم عندما رأني أرقب عملية نزع
الحذاء ثم تتم معتذراً :

— لا مؤاخذه . . أحب أن أريح قدمي قليلا . . إن
الحذاء ضيق بعض الشيء .

— العفو يا سعادة الباشا . . خذ حريرتك .

— إني دائماً ألبس حذاء ضيقاً . . فليس أبغض إلى من
الحذاء المتسع . . إنها عادة قديمة . . قديمة جداً .

ثم انطلقت منه قهقهة عالية وأخذ يهز رأسه ويقول :

— زمن ! . .

وانتظرت منه أن يفسر قوله ويشرح عادته القديمة
في كرهه للحذاء المتسع ، وأن يعقب على عجبه من الزمن
ببعض الإسهاب . . ولكنني وجدته يصمت ، وسمعت بدلاً
من صوته . . صوت شخير قد علا بجواره .

ونظرت إلى صاحب الشخير فإذا به عجوز قد راح في سنة
من النوم ، ورأيت الباشا ينظر إليه ثم يستغرق في الضحك

مرة أخرى ويعود إلى لهجته الساخرة قائلاً :

— دنيا .

ويبدو أن الرجل قد لمح على وجهه بعض علامات الضيق الناتجة من إغراقه في الأقوال المهمة والسخرية الغامضة ومن تعجبه من الدنيا ومن الزمن . . فقد بدأ يفسح قائلاً :

— الخذاء المتسع ، وما أدراك ما الخذاء المتسع . . لقد كان مصدر شقائي في باكورة الحياة . . كان أكبر مصيبة رزئت بها .

وعاد الرجل إلى الضحك . فلم أملك سوى أن أستغرق معه في الضحك . . حتى بدأ يتمالك نفسه قائلاً :

— كان ذلك منذ ما يقرب من أربعين عاماً ، وكنا نقطن وقتذاك بالدرب الأحمر في حارة الروم . . وقد ضمنا جميعاً بيت كبير حوى جميع أفراد العائلة ، وكان رأس العائلة جدنا الكبير — والد أُمى — تاجراً بالغورية . . يعيش من أولاده خالى الأكبر وخالى الأصغر وأُمى . . وكان أبى قد توفاه الله . . . وحل بنا أحد الأعياد فطلبت جدتى من الخال الأصغر — خالى طه — وهو أعقل أفراد العائلة وأكثرها اتزاناً أن يتولى شراء ملابس العيد لى .

وكان الخالي طه — من يومه — نظريات رفيعة في فن
الاقتصاد ويبدو لي أنه قد أتى إلا أن يطبق نظرياته الرفيعة —
التي كانت مداركنا أعجز من أن تفهمها وقتذاك — في عملية
شراء ملابس المتواضعة فقد خرج إلى السوق يحاول جولة
بين الغورية والموسكى ليلتاعلى بذلة العيد وحذاءه ولم يحاول
أن يصطحبني حتى لا أعرقل حركته . . وخاصة أنه لم يجد
هناك مبرراً لعملية القياس ، فقد كان يعرف مقاسي بالنظر .
واستمر ينتقل من دكان إلى دكان . . دون أن يجد البضاعة
الملائمة أو السعر الملائم . . حتى وقف فجأة أمام بذلة معلقة
في أحد الدكاكين .

عجيب . . . هذا سعر لا يصدق . . إنها صفقة هائلة !
كيف يمكن هذا . . لا شك أن صاحب الدكان قد أخطأ
السعر . . ليدخل إذن ، ويتحقق بنفسه .
ودخل الحانوت وسأل صاحبه . . فأجابه أن السعر
مضبوط لالبس فيه ولا خطأ .

مدهش . . . خمسة وسبعون قرشاً لبذلة رديجوت ! .
لقد قال التاجر أن صاحبها قد وجدها ضيقة عليه . . .
وأنه لهذا أتى استلامها ، وأنه يعرضها للبيع .
خمس وسبعون قرشاً . ! يا بلاش !

إنها صفقة هائلة . . لا بد من شرائها .
إنها قد تكون بالنسبة لى واسعة فضفاضة . . ولكن
لا شك أنه يمكن استعمالها . . ولا يغرب عن البال أننى صبي
وفى دور النمو ، وأن حجمى يتزايد . . وقد أنمو فى العظام
القادم فجأة . . فتصبح البدلة محبوبة على .
ولكنها . . رديجوت ، وأنا طفل !
وأى ضمير فى ذلك ؟ هل هناك قانون يحرم على الأطفال
لبس الرديجوت ؟ .

لا . . لا . . يجب ألا يتردد فى شرائها .
وهكذا أقدم على شرائها . . لمجرد أنها فى حد ذاتها
صفقة رابحة . . بصرف النظر عن صاحب البدلة . . .
وصلاحيته له .

أجل . . إننى يجب أن أنمو حتى أصبح ملائماً للبدلة . .
لأنها بدلة متينة ورخيصة ، وحرام أن تهنيع من يدنا . . .
وهكذا تم شراء البدلة . . أما الحذاء فقد كانت نظريته
فيه لا تقبل المجادلة .

لقد كان يعتقد أن قدمى دائمة النمو ، وأن حذائى
الجديد يجب أن يكون أكبر بعدة نمر حتى لا يضيق على
ويصبح غير صالح للاستعمال قبل أن يبلى .

وبمثل هذه النظرية ابتاع لي الحذاء .

وعاد إلى البيت يحمل الردنجوت والحذاء الكبير .
لقيته جدتي مذهولة ، واستفسرت مستنكرة عما
أحضر . . فأنبأها بلهجة الوراق إن هذا خير ما يصلح لي .
وكان من العبت مناقشته ، ولم أكن أنا نفسي — ككل
طفل — أهتم بنوع الملابس أو مقامها ، بقدر ما أهتم بها
كأشياء جديدة . وكانت فرحتي بها ولهفتي على ارتدائها
تجعلني أرفض أية محاولة لإرجاعها أو مناقشة في عدم
صلاحيتها .

وأصبح صباح العيد . . وخرجت مع الأطفال أنفخ
في الزمارة وأنا أرتدى الردنجوت وقد شمريت — جدتي —
أكمامه وثنت ساقى البنطلون وأخذت انتقل الهوينا بقدمي
« يلق » في الحذاء ، وكأني ألبس مركباً ١ .

والمدهش أن الله قد أبي أن يحقق نظرية خالي في مسألة
نموى . . فقد بقيت كما ترى ، ومرت السنة تلو السنة وأنا
أهروول في البذلة والحذاء ، وأقسم ثلاثاً أنني لو عثرت اليوم
على الحذاء لعامت فيه قدمي . . لقد كان خالي بعيد النظر
جداً . . أبعد مما استطعت أنا الوصول إليه .

وكانت البذلة والحذاء أمراً محتملاً في العيد . . لاسيما

أن جدتهما وفرحتي بهما لم تذهب بعد ، وأن اختيالي لم يكن يتعدى الحارة وأهل الحارة . ولسكن لم تسكد تنتهي الأجازة وأذهب إلى المدرسة . . حتى بدأت أثير بهما ضجة بين التلاميذ .

ولم تزعجني الضجة . . فقد كنت — من يومى — مخلوقاً مرحاً « هايلي » ، ولم أحاول أن أجعل من طقم الرديجوت مبعثاً لختلي أو لضيق . . بل كنت أشارك مع التلاميذ في نكاتهم على ، أردوها تارة وأحتملها تارة أخرى ، وأنا في الحاليتين ضاحك مرح .

وهكذا استطعت أن احتمل الرديجوت . . أما الخذاء فقد كان مصابي الأكبر ، وخاصة في حصّة اللغة العربية .

كان درس اللغة العربية هو الدرس الخامس . . أى بعد فسحة الغداء ، وكان مدرس اللغة العربية هو الشيخ على الابریمی . . كناية عن أنه جاف مقدد مقلحف كالبلح الابریمی ، ولم تكن العلاقة بيني وبين الشيخ على بطيبة في يوم من الأيام . . فقد كان دائماً يتهمنى بالبلادة والغباوة والكسل ، ويقسم أنه لم ير في حياته تلميذاً أكثر منى غباء . وكان ينصحني دائماً بأن أقطع عن الدراسة وأبحث لى عن صنعة أتعلّمها ، لأنه لا أمل لى قط في النجاح .

ولم يكن الشيخ يمتحن على فقد كنت فعلاً بخافاً غيبياً ،
وخاصة في العربية ، وما استطعت قط أن أعى شيئاً عن
النحو والصرف والإعراب لسبب واحد . . هو أنى لم
أستطع البقاء مستيقظاً في حصة واحدة من حصص الشيخ
على . . فقد كانت حصصه تعقب الغداء مباشرة وكان الجهد
الذى أبذله في الفسحة والشرامة التى أتناول بها الطعام . . .
تجعل استيقاظى في الحصة الخامسة أمراً مستحيلاً .

وكان نومي — قبل أن ارتدى الحذاء اللين — مسألة
مضمونة مأمونة . . أما بعد ارتدائه . . فقد أضحت عملية
مفضوحة مكشوفة .

كان جرس الفسحة يذق فندخل الفصول . . ويجلس
كل منا في مقعده ، وكنت أنتقى لى مقعداً خاصاً في الحصة
الخامسة . . هو آخر مقعد في ركن الفصل ، وكنت أجلس
فيه آمناً مطمئناً . . يحجبني عن عين الشيخ على جسد التلميذ
الضخم الجالس أمامى . . الذى كان يستر جسدى
الضئيل تماماً .

ويبدأ الشيخ على الشرح . . بصوته الرفيع ذى النغمة
الواحدة التى لا تتغير . . والى كان لها تأثير مهدىء على
أعصابى ، والى كانت تعادل وقتذاك حفنة من الأقراص

المنومة ، وأحاول عبثاً أن أتابع حديث الرجل عن البذل
والحلال .. ولكن لا تمر برهة حتى أكون قد سبحت مع
الملائكة في سبات عميق .

وكانت عادتي — وما زالت — عندما أنام وأنا جالس
أن أتخذ وضعاً مريحاً .. بوضعي ساقاً على ساق .
ولم يكن هذا بالأمر الخطير حتى رزاني الخال العزيز ..
بالحذاء إياه .

لقد وضعت — كعادتي — ساقاً على ساق ، ورحلت
في سباتي .. أنعم بنومة هادئة عندما سمعت في الفصل ضجة
مفاجأة تقطع صوت الشيخ على الرفيع الهاديء .
وفزع الشيخ على وصاح ثائراً :
— ما هذا ؟ .

وأجابه الفصل كله في نفس واحد :
— حذاء عبدالعزيز عمران .

ومنذ ذلك اليوم ولم يغمض لي جفن في درس عربي .
فقد كنت لا أكاد أحس بالخنول وأستسلم للنعاس واضعاً
ساقاً على ساق .. حتى ينزلق الحذاء من قدمي ويهوى إلى
الأرض في ضجة كبرى ، ولم يكن الشيخ على في حاجة بعد
ذلك لأن يسأل عن سر الضجة .. بل كان يصيح حائقاً :



— أخرج بره يا واد يا عمران يا ابن الكلب .

ثم يهجم على ويعدو ورأى وأنا ممسك بالحذاء في يدي ،
وأنطلق هارباً من الفصل ، والتلاميذ يضربون بالضحك
والاستاذ يضج بالشتائم ويصيح :

— أقسم إنك لن تفلح يا غبي يا بليد . . هذا شاربي إن
كنت تفلح . . سأذكرك بقولي هذا في المستقبل . . عندما
تصبح كمسارياً ، أو عربجياً . ! هذه أشكال لا تنفع في
المدارس .

ولم يكد عمران باشا ينتهي من حديثه حتى لمحت حذاءه
(البالي) الوجيه ينزلق من قدمه ويهوى إلى الأرض ،
ورغم أن الضجة التي أحدثها الحذاء عندما اصطدم بالأرض
كانت ضجة خافتة إلا أنها كانت كافية لإيقاظ الشيخ المغرق
في نومه في المقعد المجاور .

لقد كف الرجل عن شخيره وفتح عينيه في فزع . .
وبحركة لا إرادية وجدته ينحن فيتناول الحذاء ، ويسلمه إلى
عمران باشا قائلاً في أدب :

— اتفضل ياسعادة الباشا .

وتناول الباشا الحذاء ، وهو يقول في تواضع :

— العفو ياسيدي العفو .

وقبل أن يعود العجوز إلى سباته رأيت الباشا يقوم
بواجب التعريف بيننا . فيشير بيده إلى ثم إلى الشيخ قائلاً :
— الاستاذ الشيخ على الأبري . .

وتملكنتني دهشة شديدة . . أهذا إذاً هو الشيخ
الإبري . مدير العربية السابق ؟

ولم يستطع الشيخ أن يغالب النعاس . . فاستغرق
في نومه ثانية وعاد الباشا يقول متمماً حديثه متجاوزاً عن
علامات الدهشة التي بدت على وجهي :

— لقد مرّت الأيام وانتقلت من مدرسة إلى مدرسة ،
والشيخ على مازال مدرساً للغة العربية ، وأصبحت مهندساً
وهو مازال مدرساً للغة العربية ، وتوظفت في الحكومة
واستقلت من الحكومة وهو مازال مدرساً للغة العربية ،
وأنشأت الشركة تلو الشركة ، وهو مازال مدرساً للغة
العربية ، والتقينا ذات يوم فأقبل عليّ مرحباً مهلاً مكبراً ،
وصاح بي :

— ماشاء الله . ماشاء الله . . من يومك وانت فالح . .
هكذا الهمة وهكذا الذكاء والنبوغ ، كنت أتنبأ لك بهذا

الفلاح . أتذكر يوم قلت لك أني سأذكرك بما ستصبح عليه
مستقبلاً ؟ .

— أذكر يا شيخ علي . . أذكر جيداً .
وأنبأني أنه سيحال إلى المعاش بعد بضعة أيام بلا معاش ،
بعد خدمة وزارة المعارف أربعين عاماً . . فقلت له :
— ربنا تاب عليك من التدريس يا شيخ علي . . تحب
أشوف لك وظيفة في الشركة ؟ .

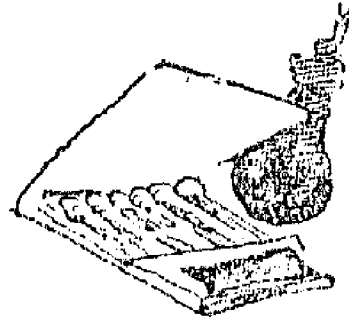
— ياريت . . ا

وهكذا ختم الشيخ علي الأبرمي مطافه المدرسي . .
بوظيفة في شركة الدوبارة .

وصمت الباشا برهة . . فسأله :

— وماذا يعمل الشيخ في الشركة ؟ .
— لا شيء ، وماذا يستطيع أن يفعل أكثر مما رأيت ؟
يسهيني ويرفع الخدام الساقط . . ارحم الله العلم والتدريس
في أرض الكنانة ا





وسحبت يدي من يدها وأحطتها بذراعي
فأماأت رأسها على كتفي ، ومددت شفتي
فحوت شفتيها . وقبلتها في هفوة وشوق ،
وحمدت الويسواس الخناس الذي يوسوس
في صدور الناس .

الويسواس الخناس ..

كننا أربعة أو خمسة من الصحاب التفتنا حول مائدة
في منتدى وأخذنا نقطع الوقت بالحديث
والسمر .

وما أذكر أن الصحبة اجتمعت إلا كانت الأنصاف
الحلوة مدار الحديث وموضع السمر . . وعند ما أقول
الأنصاف الحلوة أعني بالطبع الأنصاف الحلوة بكافة أنواعها
بما فيها الأنصاف الحلوة الشرعية . . والأنصاف الحلوة غير
الشرعية . . والأنصاف الحلوة الطائفة العابرة الفاتنة الفاتكة .
أما الأنصاف الحلوة الشرعية — أعني الزوجات إذ
كننا كلنا أزواج — فقد كانت في نظرنا حلوة باعتبار ما كان
وما كننا نذكرها في أحاديثنا بغير المرارة والشكوى والهجم
والتشنيع .

أما الأنصاف الحلوة . . غير الشرعية ، فقد كانت في
أحاديثنا ذكريات حلوة غابرة ومغامرات تتبادل سردها على
سبيل السمر والتسلية واستعادة أيام الصبا وعهود الشقاوة
والتحرر والانطلاق .

أما الأنصاف الطائفة العابرة فما كننا نملك إزاءها إلا
الحلمة والحسرة .

وبدأ أحدهما الحديث برواية النكتة التالية من باب
التشنيع على الأنصاف الحلوة — التي كانت حلوة — قال
لا فض فوه :

— جلس رجلان متزوجان على أحد الشواطئ يرقبان
الغاديات الرائحات ، وكلما مر بهما وجه جميل أو جسد
ممشوق لفت أحدهما نظر الآخر بغمزة أو بزغدة سائلا
إياه : « شايف دى ؟ » فينظر صاحبه ولا يجيب بغير بصقة
اشمئزاز . . واستمر الحال هكذا . . أحدهما يغمز ملفتاً
متسائلاً ، والثاني يجيب باصقاً مشمئزاً ، حتى ضاق به صاحبه
ذرعاً فسأله فى غيظ : « كل دول مش عاجينك ؟ » فأجابه
الآخر فى دهش : « مين قال لك مش عاجبنى ا » فعاد يسأله
متعجباً : « أمان بتف ليه ؟ » فأجابه ببساطة : « بتف على
اللى فى البيت ا » .

ولم يضحك أحدهما على النكتة فقد كانت قديمة ، ولم يكن
هناك منا إلا من سمعها أو فعلها ا .

وأخذنا بعد ذلك فى الحديث عن الأنصاف غير
الشرعية وهو أحب الحديث إلى أنفسنا وجعلنا تتبادل قص
المغامرات والنوادر . . وبين آونة وأخرى يطبق علينا
الصمت فجأة . . وتتحرك أعيننا فى اتجاه واحد وبزاوية

نظرة واحدة تخلفين في نصف حاو عابر . . حلقته من لم ير
نصفاً حاو آ من قبل . . مشيعينه باللهفة منذ ظهوره حتى
اختفائه .

وأفرغ كل منا بعض ما في جوفه من نواذر الصبا . .
إلا واحداً كان أكثرنا تؤدة وأقلنا حديثاً . . فقد أخذ إلى
الصمت والاستماع حتى استحشه بعضنا بقوله ناهراً :

— توفيق . . قل شيئاً ، وكفَّ عن هذا الصمت الثقيل .
لا بد أن تكون لك بعض المغامرات .

ولم يجب توفيق ، وعدنا نشجعه بقولنا :
— قل ولا تخف . . لن تبلغ زوجتك شيئاً . . أليس
لك مغامرات ؟

وأجاب أحدنا بالنيابة عنه :
— لا بد أن له مغامرات كثيرة .
وضحك صاحبنا توفيق ، وأجاب بعد طول صمت :
— مغامرة واحدة . . والله العظيم .
وصحنا كلنا في نفس واحد :

— قصها علينا . . لن نتركك حتى نستمع إليها .
وأطرق توفيق برأسه برهة يستعيد القصة إلى ذهنه ويلم

أطرافها من أنحاء الماضى . . ثم ضحك ضحكتين قصيرتين ،
وأخذ يقص مغامراته قائلا :

بدأنا المغامرة منذ خمسة عشر عاماً وأنا مازلت حديث
عهد بالتخرج من المدرسة وبالتوظيف . . حديث عهد
بالاستقلال الذاتى ، وبالاثنى عشر جنيتها أتناوّلها فى أول كل
شهر وأشعر أنها ملكا خاصاً لى . . وأنى حر التصرف فيها
أصرفها كما أشاء . . وأبددها حيثما أشاء ! .

ومع ذلك فلم أكن أبددها ولا أصرفها . . بل كنت
أقتصد جزءاً كبيراً .. لأنى كنت أعيش فى ذلك الوقت مع
والدى . . ولم يكن هناك أوجه للصرف . . لا سيما وأنا كما
تعلمون مخلوق طيب هادى لم أستطع بعد - رغم توظيفى -
أن أتحرر من الإحساس بأنى مازلت تلميذاً . . وأن أوسع
نطاق نزهى وفرشتى . . فكان أقصى ما أفعله من « برم »
هو أن أذهب إلى السينما « ماتينيه » وأتناول ٢ سندويتش من
الأمريكين وقطعتى جاتوه من تسيباس ، وأجول جولة فى
شارع فؤاد وعماد الدين متطلعاً إلى الغاديات الرائحات أو
المتسكعات على الفترينات ، ثم أعود إلى البيت حامداً شاكراً
فلا تدق العاشرة حتى أكون راقداً فى الفراش .

كان ذلك أقصى برنامج الشبرقة والبرم والتهيص والفرقة
سينما وسندويتش وجاتوه وتطلع إلى النساء والفترينات . .
حتى بدأت المغامرة الأولى . . وراء إحدى الفترينات .
كانت الفترينة المقدسة . . فترينة الهوى والذكريات . .
هي فترينة ريفولى الكائنة على ناصية شارع عماد الدين
وشارع عدلى .

والفترينة في حد ذاتها عامرة حافلة . . ملفتة مغرية . .
وهي تقع في معبر هام لا يكاد يمر يوم دون أن أعبره راحاً
أو غادياً . . متمهلاً أمام الفترينة مستعرضاً محتوياتها
ونظارها متطلعاً إلى ما في داخلها وخارجها تمتعاً الطرف بما
فيها وما حولها .

وزاد تمهلي يوماً بعد يوم ، وأضحى مرورى بالفترينة
ووقفقى أمامها واجباً مقدساً لا بد من تأديته . وأخذ البصر
يتجاوز ما في الفترينة إلى ما وراءها . . وينفذ من الزجاج
متخللاً المعروضات عابراً الظهر الزجاجى مستقراً على وجه
معين يتخذ مكانه في أحد أقسام المحل .

وكان وجهاً حلواً صغيراً دقيقاً متسع العينين . . لذت لى
مشاهدته كل يوم . . حتى أصبحت عادة ملحة عندي ،
وبدأت أضع زيارته من وراء الفترينة على رأس برنامج

الفرشة والبرم وأُضيف إلى السينما والساندويتش والجاتوه
والنسكع ، وقفة بفترينة ريقولى لمدة ربع ساعة قابلة للزيادة
إلى نصف ساعة .

ومضت بضعة أشهر ، ومغامرتى لا تتجاوز التطلع من
وراء الفترينة . . حتى وسوس لى الوسواس الخناس الذى
يوسوس فى صدور الناس . . بأن أتجرأ قليلا وأقدم على
عمل إيجابى وأقنعنى بأن دخلة فى المحل ووقفة أمام الساحرة
ومحاولة الشراء ستنبئنى الأرب وتبلغنى المني دون أن يكون
فى عملى خروج على مألوف أو لفت للنظر .

واقتنعت بسهولة بكلام الوسواس الخناس ، ودخلت
المحل . . واتجهت رأساً إلى بغيتى دون أن يكون لدى أى
فكرة عما أنوى شراءه .

ووقفت أمامها وجهاً لوجه . . أو بتعبير أدق عيناً
لوجه . . فما كان بي وقتذاك سوى عينين تحمقان فى وجهها
الحاو . . ومضت برهة وأنا أفحصها وهى ترتب بعض البضائع
فى منضدة زجاجية أمامها .

وأتمت عملها ثم رفعت إلىّ بصرها متسائلة :
— أفندم ؟ .

وهنا فقط تذكرت أنه يجب ألا أكتفى بالحلقة فيها بل

أشترى شيئاً ، أو على الأقل أحاول الشراء .

وبنظرة سريعة عرفت نوع بضائعها وكانت تتولى قسم أدوات الزينة للسيدات من مانيسكير وعطور وبودرة ومقصات أظافر وكريم للوجه . . الخ .

وأخذت أفحص ما عندها محاولاً أن أجده شيئاً يصلح للشراء . . أعنى ما يمكن شراؤه دون أن يذهب ثمنه سدى . ولم يكن لديها بالطبع شيء يصلح لى . . فبدأت أبحث عن شيء يصلح لوالدتي قائلاً فى نفسى إنى لم أهدها شيئاً منذ أن تخرجت ، وأخذت أفحص الأصناف المعروضة بيصر حائر وذهن قلق مضطرب لإحساسى أنى واقع فى هذه اللحظة تحت بصرها . . وأنها ولا شك آخذة فى فحصى ولو على سبيل التسلية .

ولجأة تذكرت أن والدتي كانت قد طلبت منى ربيع أقة « حنه بغدادى » من الحناوى بالغورية . . وقلت لنفسى إنه لو كان لدى الفاتنة هذا النوع من الحنة فإن المسألة تكون صفقة رائعة وتوفيقاً من عند الله ، وأكون بذلك قد أَرْضِيت نفسى ووالدتي وخرجت من هذا الحرج الذى أنا فيه قائلاً .
— عندك حنه بغدادى ؟ .

ولم تستطع الأنسة أن تمنع الابتسامة التى افتر عنها ثغرها

وهزّنت رأسها وقالت في لهجة فيها زجر خفيف :
— لا يا فندم . . ألا تريد شيئاً غير الحنّ البغدادي ؟
وأصابني الارتباك من هذا الزجر الذي كشفت به
أمرى وقلت مدافعاً :

— أريد أى شيء . . أهديه لمخلوق عزيز .
وتأملت المنضدة برهة . . ثم أخرجت لى علبة فى حجم
السكف وفتحتها قائلة :

— هذه علبة لطيفة . . بها طقم كامل للزينة . . هذه
زجاجة الريمل ، وهذه زجاجة الماسنيكير ، وهذه بودريير
لطيفة جداً لم يعد عندنا سواها . . أنصحك بأخذها .
وكانت لهجتها فى الحديث حلوة كوجهها ، والكلام يقطر
من شفيتها كما يقطر عسل النحل ! .

إنها تنصحنى بأن آخذ العلبة . . ولم أك أقوى على رد
النصيحة ، ولو كنت ملاقياً فيها حتفى . . ولا كنت بمستطيع
رفض العلبة ولو كان بها بدل الريمل والماسنيكير سم زعاف !
وأخذت العلبة ودفعت فيها كل ما فى جيبي فلم يبق معى
غير أجر الترام . . وعدت إلى البيت قريراً هائماً كأنى قد
فتحت عكا ، أو كأنى « جبت الديب من ديله » ! .
ولا أظن هناك ضرورة لوصف وقع الهدية على والدتى

وثورتها على" ، واتهامها إياي بالخيل وإصرارها على إرجاعها ،
وانتهى الأمر بها إلى بيعها إلى إحدى القرى بنصف الثمن .
وبدأت بعد ذلك سلسلة من الغزوات الشرائية الغزلية
لمحل ريشولي . . ولكنها غزوات خسائرهما خفيفة محتملة . .
فيوماً أبتاع بنسات للشعر . . ويوماً آخر أبتاع ملقاطاً
للحواجب . . وهكذا ظلت « أمرمز » على بضائع الحسنة
وأخرج منها بما خف حملة وخف ثمنه ا .

ومع ذلك فقد ثقل الأمر على جيبى ، وتكدست لدى
كمية من أدوات السيدات أستطيع أن « أشرح » بها في
عربات الترام ، وكان لا بد لي من أن أضع للأمر نهاية ،
لاسيما وأن مرور الأيام وكثرة الغزوات والأحاديث
العابرة والنظرات الطياري زادتنى شغفاً وولعاً .

وعاد الوسواس الخناس مرة أخرى يوسوس في نفسى
ويأمرنى بأن أتخذ خطوة أشد جرأة وأكثر جسارة وأقنعنى
بأن انتظارها على باب المحل حتى خروجها ثم تتبعها ومعرفة
بيتها سيكون خطوة موفقة ومرحلة حاسمة في مغامرتى .

وفعلتها . . ووقفت أنتظر حتى أغلق المتجر أبوابه . .
وخرجت البائعة الساحرة . . وسرت أتبعها في حذر
عن بعد . . حتى انتهى بي المطاف بعد طول سير

وركوب أتوبيس إلى باب بيتها بالسكاكيني ، ودخلت هي ،
وعدت بلا . . حتى خفي حنين .

وهكذا بدأ التطور الثاني لبرنامج فرفشتي ، فزاد على
السينما والساندويتش والجاتوه والتسكع ، انتظار على باب
محله ريثقولى وتوصيل الحساء فى أتوبيس نمرة ١٠ حتى
بيتها فى السكاكيني .

واستمرت أوصلها كل ليلة دون أن تبدو منها بادرة
تشعرنى أنها تعرفنى أو تحسبى ، بل كانت تتجاهلنى تجاهلاً
تاماً ، لا غضب ولا ضحك ولا نفور ولا انبساط !

وسنحت الفرصة الرائعة ذات يوم .. الفرصة التى تلمع
فجأة .. ثم تختفى ، فإن اقتنصها الإنسان ذاق سعادة العمر ،
وإن تركها تفلت ذهب عمره سدى .

رأيتها ذات يوم ، وكان يوم أحد واقفة أمام شباك
تذاكر سينما متروبول ، توشك أن تبتاع تذكرة .

ولم يكن الوسواس الخناس — بلا جدال — هو الذى
وسوس هذه المرة فى صدرى . . لأنى اندفعت قبل أن
أعطيه فرصة الوسوسة لأتخذ مكانى وراءها مباشرة أمام
شباك التذاكر ، ولأطل برأسى فأعرف مكانها ثم أطلب من
البائعة إعطائى التذكرة المجاورة لها .

وهكذا اقتضت فرصة العمر بلا أدنى تفكير ،
ولو كنت قد فكرت لترددت وأحجمت ، ولضاعت
الفرصة . . فأنتم تعرفون أى إنسان نخجول أنا .
وجلست بحوارها كتفاً فى كتف وذراعاً لصق ذراع ،
وأنا أكاد أسمع حفيف أنفاسها ، ويكاد قلبى يقفز — من
فرط الخفتان — من أضلغى .
وأطفئت الأنوار ، ولم أجاول بالطبع أن أنظر إلى
الشاشة أو أفكر فى الفيلم ، فقد كان كل تفكيرى مركزاً فى
كيف أبدأها الحديث .
وهدأتى الخناس إلى أن أمس ذراعها بذراعى وأتحسن
يدها بيدى .

وأطعته وفعلت .

وكان نصيبى زغداً من مرفقها فى جانبي .

وبلعتها ، وكتمت الزغد فى جنبي ا

وعاد الوسواس الخناس يلاح فى وسوسته ويقول :

— أقدم . . أقدم ا

واستمر الوسواس يوسوس وأنا أطيع ، ويغرى وأنا
ألبي ، حتى انتهى الأمر بى إلى زغد آخر ، لا منها ، ولا فى
جانبي ، بل من الجالس ورأى ، وفى ظهري ، وهو يهمس

بي زاجراً وهو في حالة غضب شديد :
— كفاهيه بوس بقي يا سيدنا ! إحنا حانتفرج على السيئنا
والا عليك !
وكان الرجل محقاً . فلقد كنت لا مرء وقتذاك أستحق
المشاهدة .

أى والله . لقد انتهى بي الأمر بعد طول وسوسة من
الوسواس وتلبية منى إلى أن أصبحت شفتا الحسناء فى فمى
وجسدها بين ذراعى !
كيف ؟ !

لقد لمست يدها أول مرة فزغدتنى فى جانبى ، وثانى
مرة سحبت يدها . وثالث مرة استسلمت واتسكأت على
بكتفها .

وسحبت يدى من يدها وأحطتها بذراعى فأمالت رأسها
على كتفى ، ومددت شفتى فمدت شفتيها .
وقبلتها فى لهفة ونشوة ، وحمدت الوسواس الخناس
الذى يوسوس فى صدور الناس .

وفى اليوم التالى ذهبت إليها فى المحل ورجوتها أن تنتقل
إلى قسم آخر رجالى ، حتى توفر لى هذه النقود التى تذهب
سدى .

وضحكت وأنبأتني أنه لا داعي لأن آتي لها في المحل . .
واتفقنا على موعد للقاء .

وهكذا بدأنا نلتقي ، وأنا إنسان قليل الحيلة . . عديم
التجربة ، ليست لدى أقل فكرة عن أين يذهب العشاق
أمثالي بعشيقاتهم من مثيلاتنا .

ولم يكن أمامي غير السيئنا أصطحبها إليها للقاء بعد اللقاء
حتى بدأت أضيق بالسيئنا وأهفو إلى مكان هادئ يوفر لي
خلوة نكون فيها أكثر تحرراً واطمئناناً .

وعاد الوسواس يلح ويطلب مني أن أنقب وأبحث ،
حتى هبط على صديق من السماء كان أشبه بالمعجزة .

كان الصديق صاحب عربة . وقد قصده لأفترض منه
عربته وقلت له صراحة ، إنني أريد عربته ، لأتنزه بها أنا
وصاحبة لي .

وقال الصديق ببساطة :

— العربة تحت أمرك ، ولكن لم تتعب نفسك في العربة
إن لدى شقة لطيفة خاصة ، تستطيع أن تأخذ مفتاحها في
أي وقت !

وبهت ، فقد كان هذا أكثر مما أتوقع .

شقة مرة واحدة !

ولم أتردد لحظة ، وقلت له :

— هات المفتاح .

وأخذ يصف لى الشقة معدداً محاسنها ، فأنبأنى أنها واقعة
ببيت من بيوت الشركة فى نهاية مصر الجديدة من ناحية
السباق وأنها شقة بباب منعزل على الشارع يستطيع الإنسان
أن يدخل إليها ويخرج منها دون أن يشعر به أحد .

وأنبأنى أنها مزودة بكل وسائل الراحة وبها حجرة نوم
نظيفة ومطبخ به بعض المأكولات الخفيفة وراديو . . الخ .
وأنبأنى كذلك أن السكرباء فيها بعدد من النوع الذى
يشتغل بالنقود . . أى إننا لانهصل على كهرباء إلا بقدر
النقود التى نضعها فى العداد .

وكانت المرة الأولى التى أسمع فيها عن هذا العداد . .
وأخذ صاحبي يصف لى موضعه وكيفية وضع النقود فيه .
وشعرت بارتباك وقلق خشية أن يسبب العداد مشكلة . .
ولكن صاحبي طمأننى بأن به من النقود قدر كافياً ، وأنه
يزودنى بالمعلومات من باب الاحتياط !

ووصف لى البيت جيداً ، وأعطانى نمرة الشارع ونمرة
البيت ، وتواعدنا على اللقاء فى الساعة السادسة مساءً ، حتى
يعطينى العربة والمفتاح .

وتركت صاحبي وأنا أحس بفريحة ممزوجة بالكثير من
الحشية والوجل . . فقد كانت المرة الأولى التي أوشك أن
أنغمس في مغامرة كهذه .

ومن باب الحذر ذهبت في التو لأستكشف البيت بالنهار
حتى يسهل على الذهاب إليه ليلاً .

ووصلت إلى هناك وعرفت البيت بسهولة ، ووجدت
مكانه نموذجياً ، فقد كان — كما قال صاحبي — دور سفلي
في أحد بيوت الشركة المتجاورة المتشابهة وكان له باب
منعزل يفضي إلى حديقة صغيرة تطل على شارع صامت
ساكن ، لا يكاد يمر به أحد ، وهكذا عدت مطمئناً وأنا
أمنى النفس بمغامرة مقبلة ممتعة .

ومر كل شيء على خير ما أشتهى ، فقد التقيت في الساعة
السادسة بصاحبي وسلمني المفتاح والعربة ، وفي الساعة السابعة
والنصف كانت الحسناء تجلس بجوارى وكانت العربة تنهب
الأرض في طريقها إلى مصر الجديدة .

ومر كل شيء على ما يرام فيما عدا بعض « عصابة » من
المفتاح سرعان ما تغلبت عليها ، ودخلنا الشقة فإذا بها رائعة
حقاً وجميلة .

وعلمت أن صاحبي أفرط في التواضع ، فقد وجدت

الشقة مؤثثة برياش فاخر ، (وأنها قد صممت لتكون وكر غرام) .

لا أطيل عليكم التفصيل والوصف . لقد أخذت أجول وصاحبتى فى الشقة ، وجلسنا نستمع برهة إلى الراديو ، وتناولنا بعض الفاكهة التى وجدناها فى المطبخ ، ثم ذهبنا إلى غرفة النوم .

والواقع أنى كنت غير مصدق ما أنا فيه ، فقد كان شيئاً لا يصدق أن أجد الساحرة الرائعة التى كنت لا أتمنى أكثر من النظر إليها ، قد أضحت بين يدى فى هذه الحجرة الفخمة ذات النور الأحمر . . الذى يبعث فى الجسد حرارة ، وفى النفس نشوة .

وخلعت الجاكيت والقميص ، وجلست وإياها على حافة الفراش ، وبدأت أتحمسها بتمهل وبطء وتمعن ، تماماً كما يتحمس محروم أحد ثمار المانجو ويشمها قبل أن يأكلها . . وأخذت أتحمس وجهها وعنقها بشفتى ، ورأيتها تسبل عينيها فى نصف إغماضة ، وتراخت أعضاؤها فى استسلام كلئى ! وفجأة انطفأ النور .

ووجدتها تفيق من نشوتها ، وتجلس خائفة فزعة . ولم يكن انطفاء النور فى ذاته بالشئ المفزع . . ولكن



المفاجأة التي حدث بها هي التي كانت مفزعة .

وسمعتها تصيح : « افتح النور » .

وحاولت أن أطمئنها ولكنها عادت تصيح مصرة :

« افتح النور قلت لك » .

وقمت أتلمس طريق في الظلمة متذكراً كل ما قاله صديقي

عن النور وعن العداد الذي ينطفئ إن لم تضع فيه نقوداً ،

وأدركت أن الصديق قد خدعني ، وأنه لا بد من وضع

نقود في العداد حتى يعود النور .

ولكن أين العداد ؟

وبدأت أستعيد لنفسى موضعه وكيف وصفه صاحبي .

في الطرقة ، على اليمين بجوار باب المطبخ . . هذه هي

الطرقة ، وهذا هو باب المطبخ . . ولكن لا يوجد أى أثر

للعداد !

وأخذت أتحمس الجدران قطعة قطعة ، حتى مست يدي

صندوقاً من الصفيح معلقاً على الحائط به ثقب أشبه

بثقب الحصاة ، ومددت يدي في جيبي ، وأخرجت

قطعة من فئة الخمسة قروش ووضعتها في الفتحة . . ولكن

النور لم يضيء ، وأمسكت بالصندوق وجذبتة فإذا به شيء

منفصل ليس له أية صلة بالكهرباء !

وكان لا بد من العثور على ثقب حتى أشعل به شيئاً
ولو قطعة من الورق تعطيني ضوءاً ، ولم أجد بداً من الخروج
إلى الشارع لكي أقترض من أحد المارة عود ثقب .

ووقفت بباب البيت أنتظر عابر سبيل ، وكان أول من
مرّ بائع لبن زبادى أخبرنى أنه لا يحمل ثقباً ، وكان الثانى
رجلاً أنيقاً وسيماً نظر إلىّ نظرة تعجب وأنا أقف بالفانلة
والبنطلون وسألنى لم أريد الثقب ؟

وأنبأته بأن النور انطفأ ، وأنى أريد أن أبحث عن موضع
العداد . ونظر إلى الرجل نظرة شك وسألنى عمن أكون ؟
فقلت له . فعاد يسألنى عما إذا كنت صاحب الشقة أم ضيفاً ؟
وضايقتنى أسئلته ، وقلت فى ملل وضيق وخشية :

— إذا كان معك ثقب فأرجوك أن تعطينى إياه .

— الثقب معى ، ولكنى واثق أنك لن تجد العداد ،
ولن تستطيع تشغيله ، أسمح لى بأن أدخل لتشغيله وأوفر
عليك الجهد .

وأخذت أدبر الفكرة فى رأسى ، وكنت فى حالة من
الضيق والخوف تجعلنى متلهفاً على تشغيل العداد بأية وسيلة ،
فلم أجد بداً من قبول اقتراحه ، لاسيما وأن مظهر الرجل
كان يبعث على الارتياح .

ودخلت ودخل الرجل ورأى ووجدته يعرف الطريق
أسرع مني ، ولم تمض لحظة قصيرة حتى كان النور قد أضىء .
وكنت في هذه اللحظة قد أغلقت باب غرفة النوم . .
وطلبت من الحسناء الغضبي أن تنتظر حتى أعود إليها .

ووجدت الرجل قد جلس في الصلاة ، في حالة من
الاطمئنان ، وأخذ يقضم إحدى التفاحات الموجودة في
الطبق كأنه يجلس في عقر داره .

وكنت أتوق إلى خروجه والتخلص منه . ولكني لم
أكن أريد أن أغضبه أو أبعث الشك في نفسه ، فتظاهرت
بالصبر وبأن وجوده لا يزعجني كثيراً .

ووجدته يعود إلى أسئلته الحرجة البائخة التي بدأها من
قبل فقال لي :

— أظن حضرتك ضيفاً ؟

— أجل !

— لأول مرة تحضر إلى هنا ؟

— أجل !

— هل تعرف صاحب البيت ؟

— أجل ، إنه قريب .

— من هو ؟

ووجدته قد تمادى فى أسئلته ، ولكنى لم أجد بداً من إجابته حتى أتخلص منه .

— إنه على بك فوزى .
وضحك الرجل وأمعن فى الضحك .

وعجبت لضحكه ، وخيل إلى أنه مخبول ، وندمت على إدخاله وقلت لنفسى إن الظلمة خير منه كثيراً وأهون شراً .
ولم أجد طريقة لإخراجه خيراً من أن أزعم أنى أريد مغادرة الدار فيضطر للخروج معى ثم أعود وحدى ثانية .
ونهضت متجهاً إلى حجرة النوم لأرتدى القميص والجاكيت كي أوهمه أنى خارج .

وفتحت باب الغرفة وأغلقتة بسرعة . وكانت صاحبتنا قد جلست على حافة الفراش وهى فى قلق رغم إضاءة النور ، ولم تكدر أنى حتى هبت واقفة وهمت بالصياح ساخطة محاولة أن تطلب منى الخروج .

ولكنى أسرع بوضع يدي على فاهما كي أمنعها من الحديث خشية أن يسمع الرجل صوتها وهمست فى أذنها :
— لا تتحدثى . . إن فى الصالة رجلاً غريباً . وهو الذى ساعدنى على إضاءة النور . ويبدو أنه من نوع ثقيل . .

أو لعله سكران ، فهو لا يريد الإنصراف ، وسأفهمه أنى
خارج حتى يخرج هو الآخر ثم أعود إليك حالا .

وبدت الدهشة عليها ، ونظرت إلى نظرتها إلى مجنون
ولكنى خطفت القميص والجاكته وأغلقت الباب قبل أن
أعطيها فرصة الرد .

ووقفت أمام الرجل بعد أن وضعت الجاكته على كتفى
وقلت له : هيا بنا .

— إلى أين ؟

— إنى أنوى الخروج .

— ولكنى لا أريد الخروج . يمكنك أن تخرج وحدك .

وهنا أحسست أن الموقف يحتاج إلى حزم وأن الرجل
يريد أن يستغل موقفه ، فقلت له فى لهجة حازمة عنيفة :

— أرجوك ، ليس لدى وقت للزاح .

— أنا لا أمزح ، أوكد لك أنى أود البقاء لأنى متعب .

— تستطيع أن تستريح فى بيتك .

— وهذا بالضبط ما أفعله الآن .

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أنى أستريح فى بيتى .

— هذا بيتك ؟

— أجل ! هذا بيتي ، أما البيت الذي كان مفروضاً أن
تكون فيه فهو البيت المجاور . لا تدهش فالبیتان متشابهان ،
وأنا نفسي أقع أحياناً في هذا الخطأ . . والآن تستطيع أن
تنتقل وحدك ، وإني مسأحك فيما أكلت من تفاح .
وضحك الرجل . . ولكني لم أضحك ، لقد كانت المشكاة
عويصة ، كيف أخرج وأترك الحساء ؟ وكيف أخرجها
أمامه وأنا قد زعمت له أني وحدي .

ولاحظ الرجل ترددی . . ولاحظ نظرتي إلى باب
حجرة النوم فأدرك ما وراءه .

وكان الرجل حكيماً لطيفاً فنهض معذراً وقال :

— إني جد آسف . . تستطيع أن تقضى سهرتك ، وبلغ
سلامي إلى فوزي بك .

وخرج الرجل بعد أن نشف دمي .

ولم أتم السهرة بالطبع ، فقد كانت الحساء في حال من
الخوف والضيق والغضب ، ولم أكن أقل منها خوفاً ، ولا
ضيقة ، وخرجنا نحن الإثنين قانعين من الغنيمة بالإياب !



هذا هو الابن النقي التقى ، الطاهر
الذيل ، المفض العيين . . الذي يخفي
أبوه أن تفتح عيناه علي مفاسد القاهرة . .
هذا هو الوديسة التي تسلمها المبعريات
اتريبتها والسهر عايها .

امام الفلك

القصة ذات أربعة أبطال ، وأغلب الظن **هذه** أنه لم يبق من أبطالها على قيد الحياة سوى واحد . أما الثلاثة ، فإثنان منهم أستطيع أن أجزم برحيلهم إلى الدار الباقية ، والثالث علمه عند ربى .

ولست أدري أى دافع خبيث يلح علىّ فى ألا أغير أسماء الأبطال ولا أكلف نفسى مشقة انتقاء أسماء مستعارة ، أستر خلفها حقيقة شخصياتهم ، قد يكون الكسل ، وقد يكون الاستهتار . . أو قد يكون اليقين بأن أحداً منهم لن يغضبه نشر القصة ، ولن يبادر إلى تكذيبى والتشنيع علىّ . أو قد يكون أكثر من هذا كله ، وهو الاطمئنان إلى الأبطال الأربعة . . لأن أحدهم هو أبى بالذات : المرحوم محمد السباعى ، وأنا واثق أنه لو مد الله فى عمره لسبقنى إلى نشرها . . كما سبق أن نشر معظم حوادثه مع المرحوم الشيخ عبدالرحمن البرقوقى فى قصة الدروس القاسية فى البلاغ الأسبوعى فى سنة ١٩٢٨ .

أما والله لم يهبه الفرصة لكتابتها . . فلا كتبها أنا عنه ، ولو صدق ما يقال عن الأرواح من أنها ترانا وتحس بنا وتشعر بما نفعل ، فأغلب ظنى أنه قارئها ، وأن قهقهته العالية

سترن في السماء كما سبق أن رنت في الأرض .
تبدأ القصة منذ زمن بعيد ، أستطيع أن أجزم أنه قبل
سنة ١٩١٧ . . أى قبل أن أولد أنا .. في إحدى المكتبات
(أعني بداية القصة وليس مولدى بالطبع) في شارع غيط
العدة الموصل بين باب الخلق وعابدين .

ويجلس في المكتبة رجлан : صاحبها ، وصاحب
صاحبها ، ثانيهما أفندى ، وأولها شيخ معمم . . أما الأفندى
فهو أبى : محمد السباعى ، الذى قال عنه العقاد فى تقديمه
لأحد كتبه « إنه كان طليعة المدرسة الأدبية الحديثة فى نهضة
الأدب المصرى » .

وأما الشيخ فهو عبد الرحمن البرقوقي ، الذى قال عنه
المازنى : « إنه كان فى زمانه من أعيان البيان وأقطابه وأعلامه
بل كان يمثل عهداً من عهود الأدب » .

والإثنان . . كما هو واضح ، لمن لا يعرفهم من أبناء
الجيل الجديد ، من أئمة الأدب العربى وأعلامه .

وإنى أستطيع أن أتصور أبى بجسده الضخم ، وكتفيه
العريضتين ، ووجهه الأحمر الممتلئ ، وقد جلس على كرسى
من الخوص ، ووضع ساقاً على ساق فى نفخة وعظمة كأنه
يجلس فى شبرد ، وبجواره الشيخ عبد الرحمن يجلس على

كرسى آخر بجبته المهفهفة وقفطانه الأنيق ، وجسده الفارع
ووجهه الذى لا يقل بياضاً ولا احمراراً عن وجه أبى . . .
وقد وضع هو الآخر ساقاً على ساق وأخذ يتسلى بشد
أنفاس من مبسم شيشة تسكر كع بجواره .

ولكى أعطى للقارىء فكرة عابرة عن الصديقتين الخيمتين
أبدأ بشرح شخصية أبى وذكر بعض أحواله وقتذاك .

كان أبى يعمل بالأدب والتدريس ، وكان ككل فنان
عبقرى بوهيمى ، لا يقسم وزناً لأوضاع الحياة .. يفعل
ما يرضى نفسه الفسانة بصرف النظر عن النتائج .. قال لى
عمى وهو أخوه الأصغر (طه السباعى باشا) أنه حدث ذات
مرة وهما العائلان الوحيدان للعائلة ، انه استقال من عمله ،
وأوحى إليه بالاستقالة ، وقبعا فى الدار وأغلقا عليهما إحدى
الحجرات ، والعائلة تسكاد تجن ، وأبوهما يضرب كفاً بكف
متسائلا فى دهش عما أصاب ولديه .. ثم اتضح أخيراً أنهما
يحفظان « ديوان ابن الرومى »

وسمعت من جدى أن أبى عندما كان مدرساً فى مدرسة
رأس التين بالاسكندرية كان يكره الذهاب إلى الاسكندرية
ويفضل البقاء فى القاهرة ، وفى سبيل ذلك كان يجمع كل
حصصه فى يوم واحد ، ويقضى بقية الأسبوع فى القاهرة .

فإذا ما جاء ذلك اليوم . . رفض السفر . . ويظل جدى يتوسل إليه ويدعو الله أن يهديه حتى يرضى أخيراً ، ولكي يطمئن جدى على سفره ، يأخذه من يده ويذهب به إلى المحطة ويركبه القطار ، ويتحرك القطار . . فيهدأ بال جدى ، ويحمد الله الذى هداه ، ثم يعود إلى الدار مطمئناً .

ويصل القطار إلى أول محطاته فى بنها ، فيشاور أبى عقله ويغادر القطار . . ثم يأخذ القطار العائد إلى القاهرة لاعناً الاسكندرية ومهنة التدريس .

ذلك هو أبى . . أما الشيخ البرقوقي . . فلا أظنه كان يقل عنه عبقرية . . وكان شديد الإعجاب به . . يتوق لأن ينهل بواسطته من منهل الأدب الغربى وأعلامه وعباقرته . كان الإثنان يجلسان وقتذاك فى مكتبة الشيخ البرقوقي عندما هلّ عليهما الشيخ الفك وقد سحب فى يده ولده إمام . ولست أعلم كثيراً عن الشيخ الفك ، ولكنى أعرف أنه رجل تقى طيب . . نقى السريرة شديد الورع . . قضى حياته فى الريف ، وقد أنهى ابنه دراسته الابتدائية فأحضره إلى القاهرة ليدرس فى المدارس الثانوية .

وإلى من يلجأ الشيخ الفك غير الأستاذين الكبيرين والمربين الفاضلين الأستاذ السباعى والشيخ البرقوقي ،

وهو الذى تربطه بهما أوثق الصلات وأمتن الروابط ؟
وهكذا حضر الرجل الطيب بابته إلى القاهرة ، وأخذ
يسأل عن البرقوقى والسباعى حتى اهتدى إليهما أخيراً .
وبعد التحيات والسلامات بدأ الرجل يشرح مقصده
ويعرض مطلبه قائلاً :

— بجى ما يخفّاش عليك ياسيد سباعى أنى أنا خايف على
الولد من مصر . . أنا باسمع أن كلها مفاسد وبلاوى ، وأنا
خايف على الولد لعنيه تتفتح ويخسر . . جلت فى نفسى
مافيش غيركم يجدر ياخذ باله من الولد ، وأنا حاسبيه لكم
وعارف إننى سايبه فى بيته . . مش كده والا إيه ؟
ويجب الاثنان فى نفس واحد :

— أمال . . دا فى عنينا ياعم الشيخ . . دا ابننا . . ريج
بالك وطمّن نفسك . . ما تحملش همه أبداً .
— أنا برضه جلت كده . . هو احنا لنا حد غيركم .
— دا انت الخير والبركة .
— الله يبارك لنا فيكم .

وهكذا ينصرف الشيخ الفك تاركاً ولده فى كنف
صاحبينا ، وقد اطمأنت نفسه وهدأ قلبه .
بقى أمامنا البطل الرابع ، لم نقدمه بعد ، وهو إمام الفك .

قد يتصور القارىء عندما يعرف إن صاحبنا إمام
ابن الشيخ الفلك قد انتهى من الدراسة الابتدائية وأن أباه
يخشى أن تتفتح عيناه على مفسد القاهرة ، أنه لا يعدو أن
يكون طفلاً غريباً .

قد يتصور كل إنسان هذا ولا سيما عندما ينظر إلى جيل
أصحاب الابتدائية الحالى . . جيل أطفال لا يزيد عن الحادية
عشرة . . .

ولكن « إمام » لم يكن شيئاً من هذا . . أن جيل أصحاب
الابتدائية وقتذاك كانوا فى سن آباء هذا الجيل . . كان
بينهم رجال مبرومو الشوارب ، خضر الذقون ، وكان
فى مدرسة محمد على فى ذلك الوقت — مثلاً — تلميذ سمكرى
ألحق بالمدرسة للعب الكرة ، وكان يجلس فى فصول السنة
الرابعة ، وهو لا يعرف فك الخط .

كان التلميذ إمام الفلك . . « رجلاً » ربعة ، وكان يبدو
عليه الصمت والهدوء . . هدوء « الساهى اللى تحته دواهى »
يسبل عَيْنِيهِ ويطرق برأسه ، بادی الحياء ظاهراً الخجل . . .
يجلس بجوار أبيه ساكناً منكشاً ، تقطر منه الطيبة والبراءة
وهو الذى لم يترك ماخورة فى طنطا إلا وطرقها ، ولم يدع
غرزة إلا ودخلها .

هذا هو الابن النقي التقى ، الطاهر الذليل ، المغمض العينين الذى يخشى أبوه أن تتفتح عيناه على مفاسد القاهرة . هذا هو الوديعة التى تسلمها العبقريان لتربيتها والسهر عليها . . .

وأنا أعرف أبى جيداً ، وأعرف أنه لم يكن لديه وقت لتربية أولاده ، فما بالكم بأولاد غيره ؟ أذكر مرة أنه نهرنى بشدة لأنى ألعب ، بل لأنى أذاكر دروسى ، وأذكر أنه أعطى أخى أحمد ريالاً . . لا لأنه نجح ، بل لأنه ضرب أحد أبناء الجيران — وكان الولد أكبر منه — روسية فبطحه وأسال دمه . . وأذكر كذلك أن والدتى كانت تجمعنا أنا وأخوى فى حجرة صغيرة وتغلق علينا ونحن نستذكر دروسنا ، لا خوفاً علينا من الخروج ، بل خوفاً من دخول أئبنا علينا وتعطينا ، ولم يكن يحدى معه الإغلاق ، فقد كان يصعد إلى أحد المقاعد ويشاغلنا من الشراعة الزجاجة .

تلك كانت طريقة أبى فى التربية ، ولو سألنا أحد أبناء الشيخ البرقوقى — ابنه عاطف مثلاً — عن طريقة أبيه فى تربيتهم ، لما وجدناها خيراً من ذلك .

وهكذا ترك الشيخ الفك وديعته البريئة الطاهرة

في كنف المرييين الفاضلين ، وعاد إلى بلده هادئاً مطمئناً .
وكان أول مافعله هذا (الوديعة البريئة) أن ذهب إلى
أحد نظار المدارس الأهلية وسأومه على أن يأخذ منه ربع
المصروفات ، نظير أن يقيده في المدرسة ، مجرد قيد ، على
أنه لن يضايقه لاجضور ولا بأخذ كتب ، ولا بأى شىء . .
كل ما هو مطلوب من الناظر هو أن يشبته لديه كتلميذ . .
نظير خمسة جنهات .

وتم الاتفاق ، وأثبت « إمام » نفسه كتلميذ في المدرسة .
ثم انطلق على حل شعره . . بحيث — ببقية المصروفات —
في القاهرة فساداً .

ومرّت الأيام والأسابيع والشهور . . وإمام — كما
يقولون — مقطّع السمكة وديلاً . . حتى طبقت شهرته
آفاق المواخير ، ولم يعد هناك بيت من البيوت (السر) .
إلا وإمام فيه مركز ممتاز .

وبدأت الأخبار تتواتر على أبيه — من أهل البلد الذين
يزورون القاهرة — بما أضحى عليه حال ابنه ، ولم يصدق
الشيخ في بادىء الأمر ، وظن المسألة كلها من باب الكيد ،
والحسد .

وأخيراً لعب الفار في عبه ، وأصابه القلق ، ولم ير خيراً

من الذهاب بنفسه إلى القاهرة ليرى بنفسه جليلة الأمر
وليطمئن قلبه .

وطب على ولده ، وواجهه بالتهمة والإشاعات ، وأسبل
الابن عينيه ، وأخذ يبدى أسفه على سفالة أهل البلد
وغرامهم بالأراجيف والأكاذيب والتشنيعات .

وهذا الأب بعض الشيء ، وخفت وساوسه ، وأراد
أن يقطع الشك باليقين . . فأخذ ولده وذهب إلى الشيخ
البرقوقي والأستاذ السباعي ليتأكد من حسن سير ابنه
وطيب سلوكه وليزيدهما توصية به ، ورعاية له .

ووصل الشيخ وابنه الهادي الوديعة في يده ، إلى المكتبة
حيث وجد المربين الفاضلين في محلهم المختار .

وبعد التحيات ، بدأ الشيخ الفك الحديث :

— والله يا جماعه ماخبيش عليكم . . أنا بلغني عن الواد

إمام حاجات وحشه جوى .

— خير إن شا الله ؟

— بلغني أن سيرته مهيبه ، وأنه داير على حل شعره

ينط هنا وهناك ، وأنه مش سائل لا في دروس ولا في
مدرسه ، وأن حالته زفت وقطران .

وتعالت الدهشة من الطرف الآخر :

— إمام ! مين قال كده ياسى الشيخ ؟ حد يقول الكلام ده ؟ استغفر الله العظيم . . ده إمام زى القطه المغمضه .
وزادت القطه المغمضه تغميضاً وانكاشاً ، وقال أبى
فى سره :

— والله مسيرك تروح فى شر أعمالك يا إمام الكلب ،
وتفضحننا معاك .

وعاد يقول للشيخ :

— إمام ؟ إمام سيرته مهببه ؟ ده من المدرسه للبيت
ومن البيت للمدرسه . . ده حايوت نفسه من المذاكره ،
وإحنا حتى قلنا له يا إمام حقتك ترحم نفسك شويه . . مش
كده يا إمام ؟

وأطرق إمام برأسه موافقاً . . لقد قالوا له هذا حقاً ،
وسألوه أن يرحم نفسه ، ولكن مم ؟ ؟

وهكذا أخذ صاحبانا يطمئنان الأب ، وانطلقا يعددان
محاسن إمام ويضربان المثل على طيبته وصلاحه . . . حتى
اقتنع الشيخ وأطرق برأسه خجلاً من نفسه :

— والله أنا برضه جلت كده . . بس كلام الناس
وسوسنى . . الله يلعن أبوهم .

— غايرين منك يا عم الشيخ ، حاسدينك على ابنك الفالح .

— معاهش . . الله يسامحهم . . أهو برضه جيتنا شفناكم
واطمأنيننا عليكم . .

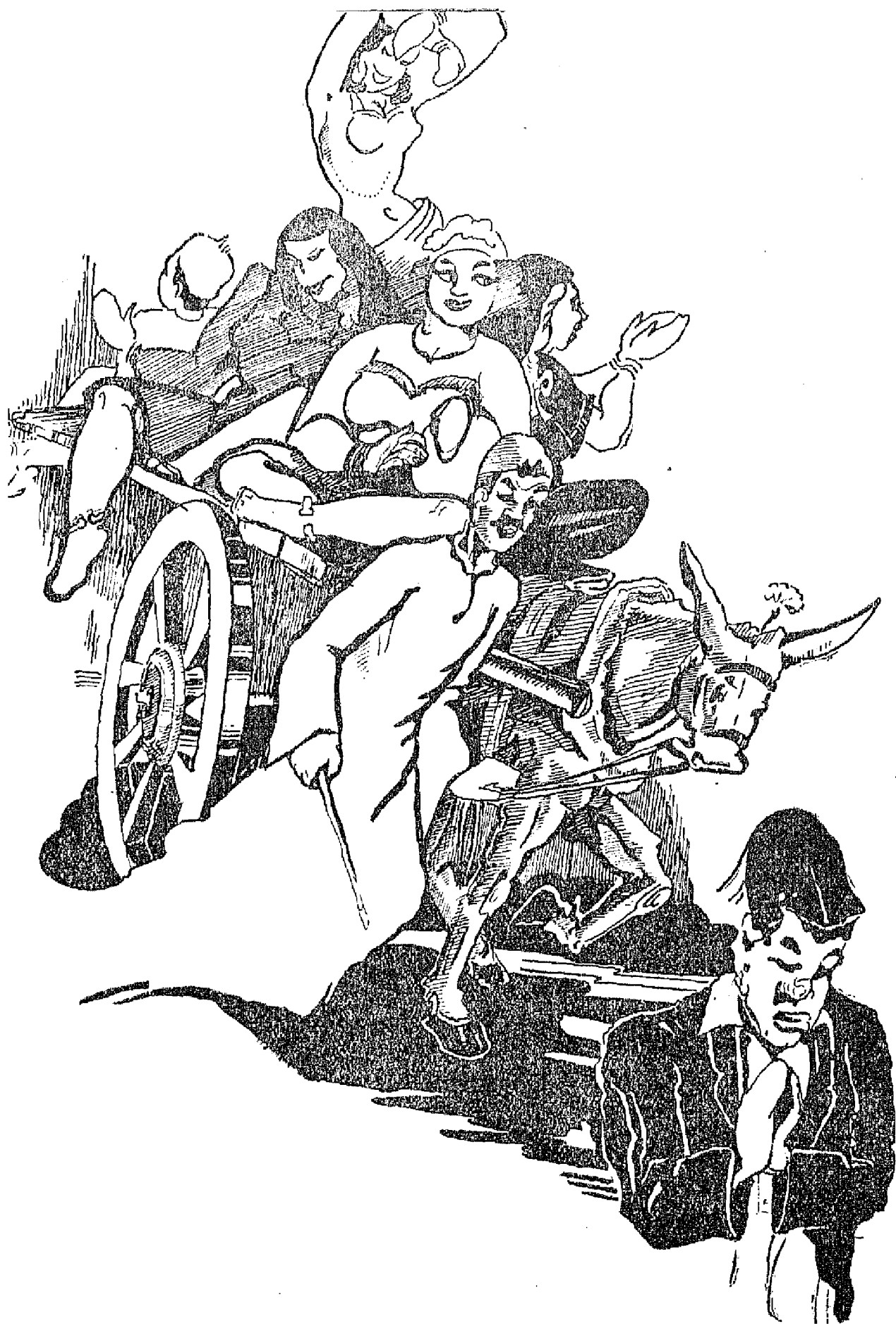
وهم الشيخ بالنهوض وقد هدأ قلبه تماماً ، ومد يده
للسلام . .

وفي نفس اللحظة بدت عربية كارو . . قد اعتلتها حفنة
من نساء (وجه البركة) وقد علا ضجيجهن وارتفعت
أصواتهن بالغناء « الفاتحة للعسكري » . . وارتدت إحداهن
طربوشاً وأمسكت بيدها عصا ووقفت على العربية تهز بطنها
وردفها وجلست (البدرونة) بجسدها السمين المترهل
والمنديل الأحمر أبو أويه وقد تهدلت ملائمتها من حافة
العربية وأخذت تدق على طبله بيدها وانهمكت بقية النساء
في التصفيق .

وكان من المحتمل أن يمر المنظر بسلام . إذ لم يكن فيه
ما يثير العجب ، فطالما مرّت أمام المكتبة أمثال تلك
العربات ، ولكن المصاب وقع عندما لمحت إحدى النسوة
صاحبنا إمام وقد وقف وراء والده وهو يمد يده للسلام
على الشيخ البرقوقي .

وضربت المرأة بيدها على صدرها وصاحت متسائلة :

— بت ياتفيده . . مش هو دا إمام ؟



— آه والنبي يا ختى . . . بآينه هوا .

وتعالت أصوات النسوة :

— يوه . . . دا إمام .

— ينيلك يا إمام .

وصاحت البدرونة :

— ودا إيه اللي جابه يا ختى فى وسط المشايخ . . .؟ يوه

جاتك نيله .

وطلبت النسوة من العربجى أن يوقف العربية ، ونزلت

إحداهن إلى الأرض صائحة :

— المنيل على عينه عليه لى ريال . . . بقاله شهر . . . فين

يا واد الريال ؟

ويهز أبى رأسه وتنطلق منه قهقهة وهو يقول لى :

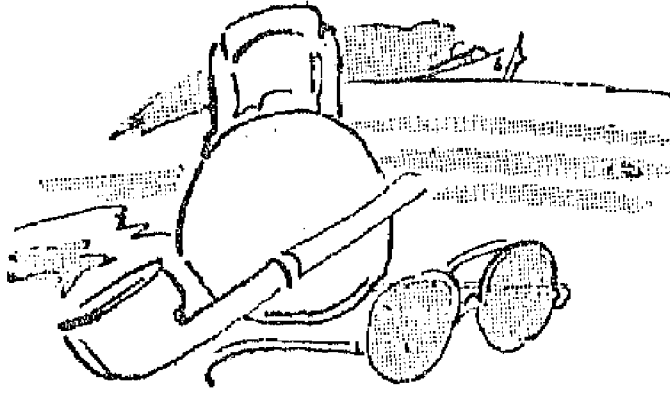
— لم أشعر فى حياتى بخجل أشد مما شعرت به فى ذلك

الوقت . . . لقد أحسست أنا والشيخ البرقوقي أن دשא

بارداً قد صب علينا ، ولم ندر ماذا نقول ولا ماذا نفعل ،

ووقفنا أمام الشيخ الفك ونحن مشدوهين مبهوتين .

وانصرف الشيخ بولده فلم نبصر لهما بعد ذلك وجهاً .



الأقرع النزهى . انسان أقرع ونزهى .
أعني أقرع الجيب ، خاوي الوفاض . .
بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق
دائم . . وهو بعد كل هذا نزهى فنجري .

النزهى ..

م هذا ذات صيف ، في زمن خلا ، زمن كنت فيه نموذجاً للأقرع النزهى . . ١

ويبدو لي أن من الخير قبل أن أبدأ القصة أن أعرف القارئ شيئاً عن حقيقة هذا الأقرع النزهى .

الأقرع النزهى . . إنسان أقرع ونزهى . . أعنى أقرع الجيب ، خاوى الوفاض . بينه وبين النقود خصومة مستحكمة وفراق دائم ، وهو بعد كل هذا ، نزهى فنجري ، ابن حظ ، محب للفرفشة ، والصرف ، والتهيص ، فهو يصرف ما في الجيب مع خلو الجيب ، ويأس من الغيب ، ويضيع القرش الأبيض ، دون أن ينتظر من عنده أسود ولا أبيض . وينزه نفسه بكل ما يحب ويشتهي ، وعلى الله التداير .

أقول إنى كنت في زمن خلا عندما وقعت حوادث هذه القصة ، نموذجاً للأقرع النزهى ، ولست أريد أن يفهم القراء من قولي « كنت في زمن خلا » ، أنى قد أضحيت من كبار الأثرياء ، وأن جيبى قد نبت شعره وزال قرعه ، بل كل ما في الأمر ، أنى لم أعد نزهياً ، وأن ضيق الوقت

وكثرة المشاغل ، وأعباء الحياة . قد أضاعت من النفس
خفتها وصدتها عن اللهو والعيش ، وسدت في وجهها سبل
الفرفشة والتهيص .

وعندما أجلس اليوم لأكتب في حمارة القبط ، ولهب
الحر ، وأنا حائر ، بين أن أفتح النافذة فأكتوى بسياط
الشرد ، تلفح وجهي وتشوى بدني ، وبين أن أغلقها ،
فأكتم أنفاسي ، وأسلق جسدي ، وأضحى كما يقولون
« عرقى مرقى » .

عندما أجلس لأكتب وسط هذا الجحيم الأرضي ،
يحاول أن أعزى النفس ببعض ذكريات صيفية تندى
عليها وتبل حرارتها ، وتعوضها ولو بالوهم عن متعة المصيف
وإغراء الشاطئ والمستلقيات على الشاطئ .

كنا ثلاثة ، وخير ما أستطيع أن أصف به أنفسنا
حينئذ ، هو ثلاثة صبية ، وإن كنا نحس وقتذاك أننا في
عنقوان الرجولة ، وأنه لا يوجد على ظهر الأرض أرجح
منا عقلا وأكثر حكمة ، وأن كل الناس — عدانا — ما بين
صبي أعمق وعجوز مخرف !

وكنا نكون عصبية ، مفرجة ضاحكة ، لا نكاد نعترف
بأن في الحياة أحزاناً ، وكان شعارنا بسمه على الشفاه ،

وقهته تصدر من القلوب قبل الأفواه ، نستنبت الضحك
من منابت الحزن ، ونستدر البسات من موارد البكاء ،
لا يكاد يوجد ما يحبس نكاتنا ويخلق أفواهنا ، حتى في
مواقف العزاء وتشجيع الجنائزات ، كنا نكسرو وجوهنا
علائم الحزن بشق الأنفس ، إذ نذهب لتعزية أحدنا في
وفاة أحد أقاربه ، فلا نكاد نبصره وقد وضع طربوشاً
اقترضه في منتصف رأسه ، وأطرق برأسه مدعياً الحزن ،
حتى تصيينا نوبة من الضحك نلاقي الأمرين في كتمها .

وكنا نستطيع أن نجعل من أى إنسان — مهما ثقل
دمه — مورد تسلية لنا ، بمراقبة حركاته ، وتمثيل أعماله
وتصرفاته .

وكنا نلعب معاً في تيم الكرة بالمدرسة ، السكند تيم
طبعاً ، ولم يكن وضعنا في التيم ناتجاً عن إجادتنا للعبة بل
كان منا مجرد عفونة وتلحمة وخوف من مراقب الفريق
من طول لساننا ورغبة منه في مداراتنا والانتفاع بنا فيما
يتطلب المشاكسة والمناكفة .

وكنا دائماً السبب في هزيمة التيم ، فما أظن أن ملاعب
الكرة قد رأت أسوأ منا ، ومع ذلك ، فلم يكن أسهل علينا
من تقارض المديح وتبادل الشناء ، و « الطارد لك »

ويخيل لي أني أستطيع — بمنتهى السهولة — أن أُملاً
عشرات الصفحات . . عن حوادثنا وقتذاك وعن النوادر
المختلفة التي كانت تقع لنا ، ولنا أنخشي أن أترك لنفسى
العنان فأُملاً حين القصة ، دون أن أكتب القصة ، وأن
أنهت كتابتى بمجرد مقدمة بلا قصة ، وعلى ذلك فمن الخير
أن ندخل على القصة رأساً .

فى ذات صيف رأينا — بلا داع — أن نذهب
للتصيف فى الإسكندرية ، وعندما أقول بلا داع ،
أقولها قول الواثق الجازم ، لأنه ، أولاً ، لم يسبق لنا عادة
التصيف ، بل كنا قانعين كل القناعة بقضاء الصيف ما بين
روض الفرج وقصر النيل ، وثانياً ، لم تفكر عائلة أى منا
فى التصيف حتى يكون ذلك داعياً لسفر أحدنا وأخذ
صاحبه معه ، وثالثاً ، لم يكن لأحد منا أى أقارب يمكن أن
يستضيفونا فى الإسكندرية . ورابعاً لم نكن نملك حرية
السفر دون أهلنا ، وخامساً وهو أهم من كل ما سبق ،
لم يكن معنا النقود التى تكفىنا للتصيف .

ومع ذلك ، ورغم كل ما سبق ذكره ، قررنا التصيف ،
فقد كانت الحكمة الوحيدة التى نتبعها يومذاك ، هى أنه

لا مستحيل في الحياة ، وما دمنّا على قيد الحياة ، فكل شيء ممكن عمله .

وهكذا بدأنا الاستعداد للتصنيف وتجايلنا على أهلنا مدعين أننا سنذهب في رحلة مع المدرسة لنسكن في خيام على شاطئ سيدي بشر ، واستطاع كل منا الحصول على قدر ضئيل من المال ، جمعناه على بعضه ، لنصرف منه مبعاً ، وبدأنا بموازنة الميزانية .

ولم تكن موازنتها — نظرياً — بالأمر العسير . فما كانت لدينا أقل فكرة عن أوجه الصرف وتكاليف المعيشة ، فقدرنا ما شاء لنا الجهل أن نقدر ، واستطعنا بمنتهى البساطة أن نسوى المنصرف بالإيراد .

وبدأنا الجهاد ، فقد كانت العملية لا يمكن أن تكون — بهذا المبلغ التافه — إلا جهاداً وكفاحاً لا من أجل التصنيف والتزهر والفرشة ، بل من أجل الحصول على لقمة العيش والمأوى والستر ، أى أنه كان علينا أن نجاهد ، لا من أجل المتعة ، بل من أجل البقاء — في المصيف — على قيد الحياة .

بدأنا الجهاد محملين بالزاد والزواد ، مما استطاع كل منا تهريبه من بيته ، من المأكولات الجافة التي يمكن أن تعيننا

في الضراء وتشد أزرنا في البأساء ، وحصلنا بذلك على كمية
لا بأس بها من القراقيش وعلب المربي والسردين .
واستطعت أنا - بالإضافة إلى ذلك - أن أسرق قدرة
من الجبنة القديمة وصفيحة عسل وبرطمان مخلل . . كئنا نعهدها
يومذاك من أثمن الأسلاب وأقيم الذخائر .

وككل أقرع ونزهى ، صممت على ألا نذهب إلى
المصيف إلا بعد أن نبتاع ملابس المصيف اللازمة - في
عرفنا - لكل أرستقراطي منتفخ الجيب ، من مايو
صوف وبرنس ، إلى قميص حرير أبيض سيور وبنطلون
فانلة ، إلى كاسكت ونظارة سوداء وبيب (غليون) .
ولما كانت ميزانيتنا العجفاء لا يمكن أن تسمح لكل واحد
منا أن يبتاع طقمًا كاملاً . فقد ابتعنا واحداً من كل نوع
واتفقنا على أن نقسم الطقم الأرستقراطي إلى ثلاثة أقسام
نتبادلها يوماً بعد يوم . فواحد منا يرتدى المايوه والبرنس .
والثاني يرتدى القميص والبنطلون ، والثالث يتمتع
بالكاسكيت والنظارة والبيب .

ورحلنا عن القاهرة ونحن أقرب إلى أهل الريف .
بذلك الخرج المملوء بالقراقيش وقدرة المش وصفيحة
العسل وبرطمان المخلل ، وهبطنا إلى الإسكندرية وقد تملكنا

إحساس المقدم على مغامرة اكتشاف مجاهل وغياهب . .
ولست أريد الإطالة في سرد التفاصيل والعقبات التي
صادفتنا حتى استقرت بنا الأمور — بقدره قادر — في
إحدى الكبائن الخشبية في بقعة ما ، بشاطيء الإسكندرية ،
والواقع أنى لا أدري حتى الآن كيف أمكننا تذليل العقبات
وتخطي الصعاب ونحن على ما كنا عليه من جهل وسوء
تصرف ، ولكن الذى أدريه أننا اتبعنا نظرية « دع الحياة
تسير » ، وأننا « ما دمنا أحياء فلا شئ مستحيل » ، وهكذا
وجدنا الأمور تتبسط وتحل ، والحياة تسير بنا ، حتى
تستقر في كايينة « مدام ماريكا » ، التي تنازلت لنا عن حق
سكنهاها ، وأخلتها لنا ، نظير ثلاثة جنيها ، وبرطمان المخمل ،
وزيارتها لنا ثلاث مرات يومياً ، لتطمئن على سلامة الكايينة ،
ولتأكد أننا لم نحملها ونعود بها إلى القاهرة .

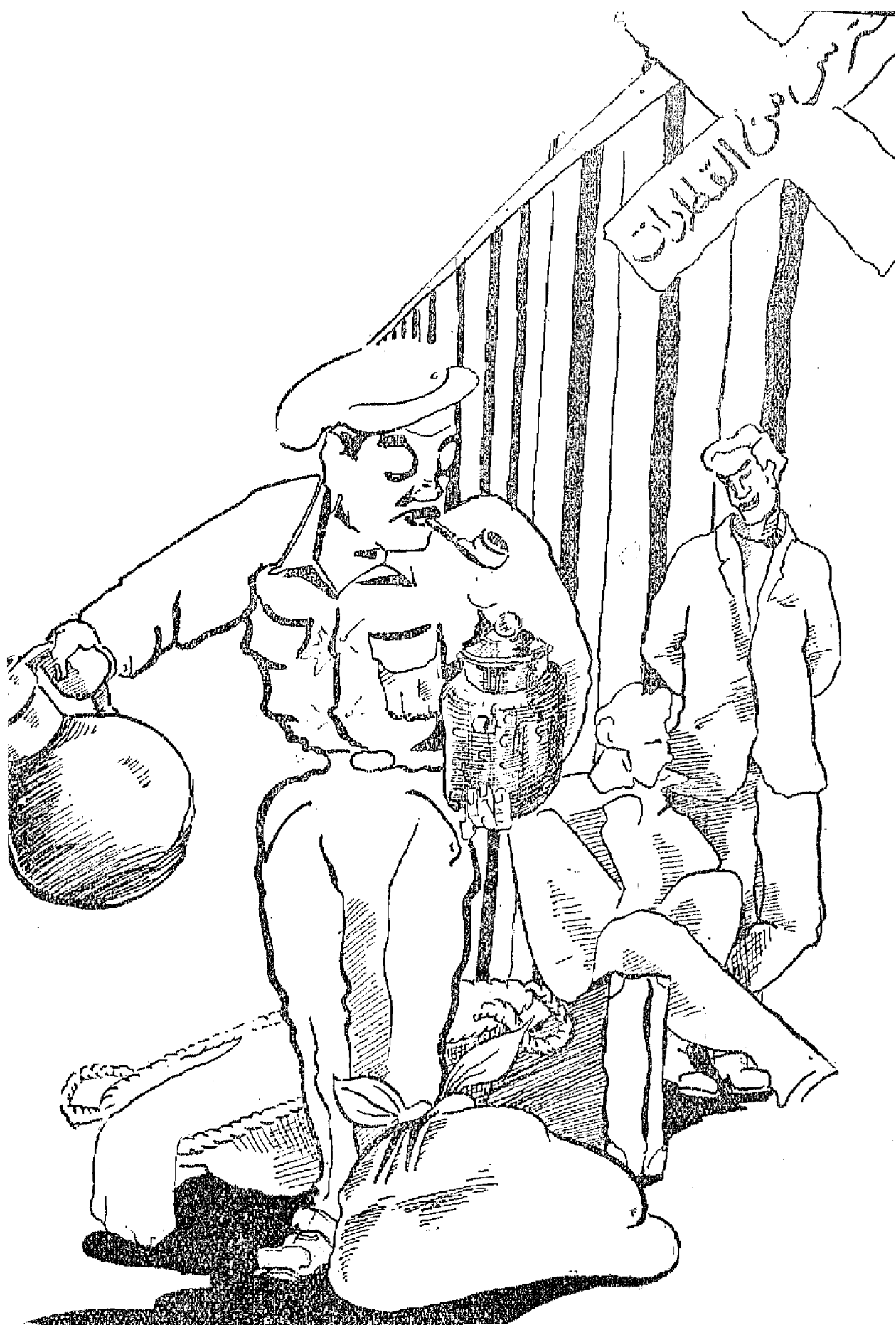
وجلسنا في الكايينة الجرباء المشققة ، كنا نسير فيها
فتتفرع أرضيتها تحت أقدامنا فتذكرنا بقول الشاعر :

ودار خراب بها قد نزلت

ولكن نزلت إلى السابعة

فلا فرق ما بين أنى أكون

بها أو أكون على القارعة



وأخشى بها أن أقيم الصلاة
فستجد حيطانها الراكعة

إذا ما قرأت إذا زلزلت
خشيت بأن تقرأ الواقعة

ولم تكن كابينة « مدام مريكا » بأفضل كثيراً من دار
الشاعر . ومع ذلك فقد كان بنا من فرط الفرحه بها ،
إحساس قاطن أنطونيادس ، وساكن الزعفران . وأخذنا
نتمطى ونتلوى على الفراش الوحيد والمرتبة الملقاة على
الأرض ، كأننا لم نهم على فراش أو مرتبة من قبل أو كأننا
لم نتعود أن ننام بالجملة على فراش واحد .

ورتبنا الأطعمة في دولاب المطبخ واتفقنا على أن
نكون عقلاء منظمين ، وأخذنا في كنس الكابينة
ومسحها وتنظيف حيطانها مما علق بها من الأتربة
ووضعنا فيما بيننا نظاماً للخدمة — إذ لم يكن من المعقول
أن نفكر في إحضار خادم — واتفقنا على أن تكون
الخدمة بالنووتجية ، فيتولى كل منا أمر الدار في يوم كامل
يبدأ من الشروق وينتهي في شروق اليوم التالي ، على أن
يؤدي لها كل ما يلزم من مسح وكنس وشراء طعام وطبخ

و غسّل أوّان و غسّل ملابس و كيّها ، و مقابلة « مدام ماريكا »
و الإعجاب بها .

و سارت بنا الحياة سهلة لطيفة مريحة هائلة ، و تعوّد كل
منا أن يقوم بدور خدمته على أتم وجه بلا تقصير ولا تذمر ،
و تعوّدنا كذلك تبادل مهمات الأرسقراطية — و هي
ملابس الشاطئ — دون أن يحدث بيننا أى خلاف أو نزاع .
و بدأنا مغامراتنا الغرامية . مغامرات عابرة طيارة ،
و لم تكن متعتنا بالمغامرات نفسها قدر متعتنا بالتفاخر بها ،
و بأن يقص كل منا تفاصيلها على الآخرين ، مضيفاً إليها
الحواشى و الرتوش ، مضيفاً عليها من بنات أفكاره
ما استطاع من أوهام و أكاذيب .

و فى ذات يوم ، خرجت وحدى قبيل الغروب للتنزه
على الكورنيش ، فقد كان أحد الرفاق منهمكا فى مقابلة مدام
ماريكا التى لم تنقطع قط عن الحضور ، و فى تلقى تأنيدها على
الإسراف فى استعمال المياه و كان الرفيق الآخر — كما
يدعى — على موعد غرام .

و كنت أشعر فى ذلك اليوم أننى على أتم حال من
الوجاهة و الأرسقراطية ، فقد كان نصيبى فى ذات اليوم
من اللوازم طقم النظارة السوداء و الكاسكتة و البايب .

وكنيت قد استعرت من صاحبي الملازم للدار — أى الذى
سيقوم بالخدمة — نصيبه المكون من القميص الحرير
والبانطلون الفانلة الأبيض .

وقد كان يتملكنى وقتذاك وهم عجيب من النظارة
والكاسكيت والبايب ، إذ يخيل لى بمجرد أن أسير بهذه
الأشياء أنى قد أصبحت إنساناً آخر أقرب إلى الملوك
والأمراء ونجوم السينما ، وكنت أستغلها أقصى استغلال
فلا أتركها لحظة واحدة ، حتى عندما تسقط الشمس ويسود
الظلام ، وكانت الكاسكيت تستمر قابضة على رأسى ، والنظارة
السوداء ملاصقة لعينى ، ومالى أنا واسقوط الشمس
وشروقها . إن الأدوات التى ألبسها ، أدوات أرسقراطية ،
فهل يعقل أن تغيب الأرسقراطية والمظهر الجذاب بمجرد
غياب الشمس .

وهكذا سرت بالكاسكيت والنظارة السوداء والبايب
والبانطلون والقميص ، وقد خيل إلى أن أنظار الناس قد
تسمرت فى . . وأخذت تحدجنى ، وأنى قد بت شغلهم
الشاغل ، وأن الشفاه الحلوّة العذبة لم يعد لها عمل إلا التهامس
على الإعجاب بى .

وهزرت رأسى وقلت لنفسى معهم حق ، فما أظنهم قد

رأوا من قبل من ارتدى الطقمين معاً ، طقم الكاسكت
وطقم القميص والبنطلون .

وصممت على انتهاز هذه الفرصة التي قل أن يجود بمثلها
الدهر . وأن أقدم على استغلالها ، فألقى بدلوى في الدلاء ،
وأن أبدأ عملية المعاكسة و « البصبة » وأنا على حالي تلك
من الوجاهة والأناقة ، فلا أظنني أستطيع أن أقع على
صيد أثمن مما يمكن أن أقع عليه وأنا بهذه الأرستقراطية
المزدوجة .

ويشاء الحظ العجيب أن يقع الصيد في غمضة عين . .
وأي صيد ! صيد لم أكن أحلم به . . ولا أفكر فيه ،
ولا أنطاول إليه .

كانت من نوع يجذب النظر من بين الآلاف الموجودة .
نوع براق أهيف فائر ، صارخ الفتنة ، « زاعق » الجمال .
لا يستطيع أى نوع من الثياب أن يستر محاسن جسدها .
فهى عارية عارية ، وكاسية عارية ، لا تملك العين إلا أن
تستشف من وراء الثياب ما أخفت الثياب .

ولست أدري ، أكان حقاً سر النظارة السوداء
والكاسكيت والبايب والقميص الحريري هو الذى أوقع

الفاتنة في شراكى ، أم كانت المسألة مجرد بحث حلو ، وفضل
من الله . . ؟

على أية حال ، لم يكن لدى وقتذاك فرصة للتفكير فقد
كنت فى حالة « دوخان » من فرط الفرحة ، ووجدت نفسى
— بدون جهد — أقف بجوارها متكئاً على الكورنيش .
وقد تلاصق كتفانا وأخذنا نتحدث بلا كلفة كأننا أصدقاء
قدامى .

ولم تكن فرحتى فى الواقع ناتجة عن متعة بالفتاة نفسها
بل كانت ناتجة عن تصورى ما أنوى قصه على صاحبه
ومدى ما أستطيع التفاوض به . وكنت أرتب فى ذهنى
التحاييد والتحاوير التى أنوي إضافتها إلى مغامرتى الجديدة ،
وكنت أمعن النظر فى وجه الفتاة حتى أستطيع أن أصفها
لها جيداً .

واستمر الحديث بيننا هادئاً ممتعاً ، حتى أخبرتنى فى
خلاله أنها ابنة « فلان باشا » . وأحسست برأسى يدور ،
من يصدق هذا ، ابنة باشا مرة واحدة ؟

وتمنيت لو استطعت أن أتركها وأعود إلى البيت حتى
أحضر الصاحبين الخبيثين ، ليشاهدا بنفسيهما « الأملة » التى
أصبت بها وليتأكدا أن مغامرتى حقيقة واقعة ، لا ادعاء

فيها ، وأن ابنة أحد البشوات ، قد سقطت في هوى . .
العبد الفقير .

وافترقنا بعد أن تواعدنا على اللقاء في الساعة صباحاً
والشاطيء نعال ، وتركتها وانطلقت إلى الكاينة لأقص على
صاحبي ما حدث لي وأنبئهما بالموعد الصباحي .

ولم يبد عليهما ، علام التصديق ، وهزا رأسيهما .
كأنهما يوافقان على كذبة من معتاد للكذب ، فقلت لهما ،
بلهجة الواثق ، أنهما يستطيعان التأكد من صدق قولي بأن
ينذهبا للشاطيء في الساعة السابعة حيث ألتقي بالحبيبة
الأرستقراطية .

وهزّ أحدهما رأسه مستنكراً وتساءل :
— الساعة السابعة ، باكر ؟

فقلت في ثقة :

— أجل .

— أنسيت أنك نوبتجي باكر .

نوبتجي ١١ . . أجل ، لقد نسيت النوبتجية . . إن عليّ
أن أقوم بدور الخدمة في الغد .

ولكني لا بد أن أذهب ، ليس هناك قوة في العالم
يمكن أن تمنعني من الذهاب .

وسألتها أن يبادلاني ، فأبى ، وتوسلت إليهما فأصرّا
على الإباء .

واستيقظت في الساعة الخامسة صباحاً بعد أن صممت
على أن أنهي كل ما لدى من عمل قبل أن تحل السابعة ، ثم
انطلقت في السابعة إلى موعدى ، ماذا يريدان مني أكثر
من ذلك ؟

ودخلت المطبخ مشمراً عن ساعدى وبدأت أعد
معدات الطهى الذى جهزت لوازمه من الليل .
وكان على أن أبدأ بغسل النحاس ، وفتحت الصنبور
فاذا بالمياه مقطوعة .

ولم تمض برهة قصيرة حتى كنت مستقرّاً بكموم الحلل
أمام الحنفية على شاطئ البحر ، وبدأت عملية الدعك
بالرمال مرة والغسل بالليفة والصابون مرة أخرى حتى جعلت
النحاس يبرق من فرط النظافة ، أو كما يقول أهل البيت
« فل مفتوح » .

وفركت يدى فرحاً واغترباطاً . . وهممت بالنهوض ،
راضياً عن نفسى كل الرضاء .

ورفعت بصرى ، فاذا بى أجدها هى ، بدمها ولحمها
وصدرها وساقها ، الحبيبة الأرسقراطية ، ابنة الباشا .

تصوروا موقفي ، وهي تتأملني وقد جالست أمام كوم
النحاس بالجلباب كأحققر خادم ، وقد تلوثت يداي بالهباب
وأغرقت ملابسي بالمياه والرمال !
وأحسست بالدنيا تدور بي ووجدتني بحركة لا إرادية ،
أرفع يدي إلى وجهي فألوته بالهباب ثم أقول لها بصوت
ذليل متواضع كأنني لست أنا ، بل مجرد خادم لي :
— سيدي جايك حالا .

ثم ألق النحاس على كتفي وأسير مغنياً بأعلى صوت :
« سلم علي . . سلم علي » . لما جابلني وسلم علي ، يا بوى
يا بوى . .

ووصلت إلى الكايينة فوضعت النحاس في المطبخ
وجالست برهة أستريح من عناء الخضة ، ثم نهضت متمالكا
نفسى ، وأخذت أزيل من وجهي الهباب وقد صممت أن
أثأر لنفسي من صاحبي فلا أذيقهما طعاماً . . وأن
أرتدى كذلك الطقم الأرستقراطي بالكامل فأحرمهما من
التمتع بنصيبهما .

وهكذا انطلقت لتوى من الدار مرتدياً المايوه الصوف
والقميص الحرير ، والبنطلون ، والكاسكت ، والنظارة ،

والباب ، وفوق كل هذا ، البرنس ، حتى لا أترك لها قطعة واحدة من قطع الأريستقراطية .

وعدوت إلى الشاطئ ، فوجدتها مستلقية على الرمال وحيدة في رقة ، فنظرت إلى في دهشة ووجدتها تقول مستنكرة :

— انت لابس هدموم سيدك ؟

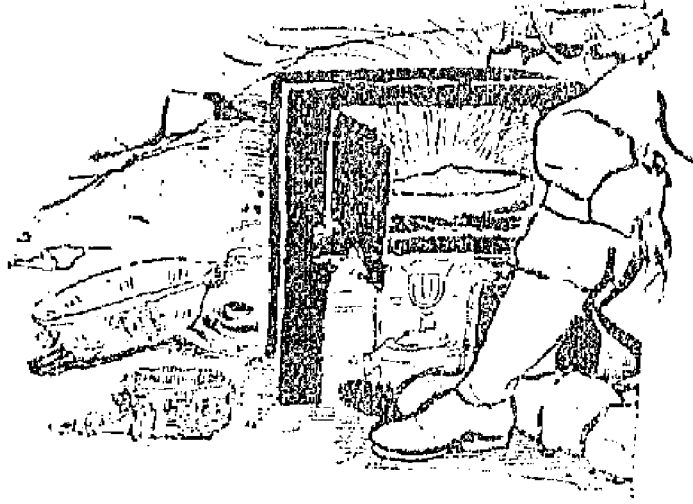
يا للفتاة الخبيثة ، لقد أصرت على أني ما زلت الخادم ، ولم تصدق أبداً أني في هذه المرة . . كنت « سيدى » نفسه .
وأخيراً اضطررت لأن أعترف لها بكل التفاصيل وأن أقول لها إنى صعقت عندما رأيته أمامي وأنا أغسل الحلال .
وكانت رفيقة لطيفة عندما قالت ضاحكة :

— لو لم تفر لعرضت عليك المساعدة .

وما زالت حتى الآن ، إذا ما لقيتني تسألني مقهقهة :

— إزاي سيدك ؟





ودق المدفع وأقبل الضباط علي خيمة
الأكل وفوجئوا بالصينية تتوسط
السفرة . . وجلست أنا والبارودي نترك
أيدينا وقد كسونا وجوهنا علامات للتواضع
وانكار الذات .

صينية قريء..

أن هناك سؤالاً أعيتني إجابته كهذا السؤال ؟ .

ماذا يحدد صاحبنا « الضو » إلى خلط الطعام

لا أظن

بالجواز ؟ .

أربعة أشهر .. ١١٠ مائة وعشرون يوماً .. ونحن لا نذوق

لقمة واحدة .. قد خلت من الجواز .

أترى الخبيث له بالجواز ولع فهو يدسه في طعامنا ..

ليل نهار .. حتى يتمتع بما تبقى منا مغموراً بالجواز ؟ .

لا أظن .. فلو أن الأمر كذلك لكان خيراً له أن

يحتفظ بكمية الجواز التي يخلط بها الطعام .. لينخلط بها البقايا

فقط . فيستطيع بذلك أن ينعم في طعامه بكمية من الجواز أوفر .

أترى الغبي حريص على صحتنا .. فهو يدس الجواز في

الطعام حتى يحصننا به ضد الأمراض .. ويحنبنا شر الأوبئة ؟

أم تراه قد ملّ عشرتنا ، فهو يجد في الجواز خير وسيلة

للتخلص منا والقضاء على حياتنا ؟

من يدري ؟ كل هذا جائز ومحمّل فلا أظن أن هناك شيئاً

مستبعداً على صاحبنا ، فهو إنسان غير مفهوم لا يستطيع أن

تميز فيه ناحية الشر أو الخير ، فقد منج في نفسه خيره بشره

وأضحى خليطاً معقداً لا يستبينه المرء حتى بعد طول دراسة

فأنت تظلمه إذا ما قلت عنه شيراً ، وتظلم نفسك إذا ما ظننت به صلاحاً واطمأنت إليه .

ولكن ما ذا يجبرنا على التمسك بهذا الضُّوء ، وعلى الرضوخ لتناول طعامه المخلوط بالجواز ؟

قالوا ماذا يجبرك على السوء ، قلت ما هو أسوأ منه ، وهذا هو نفس ما كنا نقوله لأنفسنا وقتذاك ، فما أجبرنا على احتمال سوء الضُّوء ، إلا لأننا لم نجد ما هو خير منه

كان الضُّوء على حد قولهم ، يبيع فينا ويشترى ، وكنا إذ ذاك بالواحات البحرية حوالى عام ١٩٣٩ ياحدى كتائب آلاى السيارات الخفيفة وقد احتلنا الصحراء التى تشرف على الواحات من ناحية النقب رقم ١٣ وكانت معنا إذ ذاك بعض وحدات المدفعية والدبابات ، التى انتقلت إلى هناك عقب إعلان إيطاليا الحرب .

ولقد وقع اختيارنا عند الرحيل إلى الواحات على العسكرى الضُّوء ، أو على الحاج الضُّوء كما كان يسمى نفسه ، لى يقوم بمهمة الطبخ لضباط السكتية .

أقول إن اختيارنا قد وقع عليه ، ولو أردت التعبير لقلت إننا أرغنا على اختياره ، فما تقدم لنا أحد من عساكر

السكرتيرية سواه ، عندما سألتناهم عن مجيد منهم عملية الطبخ .
وتقدم الضَّوُّ المذكور ، وأنبأنا في «تقل» أنه كان يعمل
طباخاً لأباضه باشا ، وعائلة أباضه مليئة بالباشوات ، وليس
من باشا منهم إلا وعنده على الأقل طباخ ، ولم يكن من
اليسير علينا أن نلف على الأباطية الباشوات لنسألهم واحداً
واحداً عما إذا كان أحداً منهم قد استخدم طباخاً منذ بضع
سنوات يدعى الحاج الضَّوُّ .

لم يكن هذا بالطبع أمراً يسيراً ، وعلى هذا اكتفينا
بتصديق صاحبنا ، وقلنا في أنفسنا أننا حتى لو حذفنا عامل
المبالغة من قوله ، فلن يكون أقل من مر مطون عند أباضه
باشا ، وفي هذه الحالة سيكون لديه ولو فكرة بسيطة عن
الطعام ، ولا بد أنه سيتعلم الطبخ بمضى المدة .

وعلى هذا سلمنا له زمامنا من حيث الطعام ، وبدأ الضَّوُّ
يجرى فينا تجاربه ، كأننا أرايب في معمل .

وبعد بضع أكالات ، اتضح لنا أن الضَّوُّ هذا قد يكون
حقاً اشتغل عند أباضه باشا ، ولكنه قطعاً لم يكن طباخاً ،
ولا مر مطوناً ، ولا سفر جياً ، قد يكون اشتغل « سائس » ،
سائقاً لسيارة ، سكرتيراً ، أى منصب ، عدا المناصب التي

لها صلة بالطعام ، اللهم إلا في حالة واحدة ، وهي إضراب
أبازه باشا عن الطعام .

وبمضى المدة ، وبطول المكث بين الحلل والكورانين ،
حصل الضو على بعض الدراية في فن الطبخ ، أو قل إن
بطوننا اخشوشنت واعتادت شطف العيش ، كما يعتاد
الإنسان كل سوء يطول به ، وأضحينا أشبه بالحواة الذين
يبلعون الزجاج والزلط .

أقول إننا اعتدنا سيئات هذا الضو ، وبدأنا نستسيغ
طعامه إلا أمراً واحداً ، وهو إصراره على خلط الطعام
بالجاز .

« ياسى ضو حرام عليك كفايه جاز بقى » .
هذا هو الرجاء الذى كنا نسوقه إليه عقب كل أكلة .
ولما وجدنا أن رجاءنا لم يلق منه أذنا مصغية ، حاولنا أن
نسوقه إليه في صورة أخف على نفسه فقلنا له :
« طيب بلاش تشيل الجاز خففه شويه » .
ولا هذا أيضاً .

« طيب ممكن تجيب الجاز في سلطنيه لوحده ، واحنا
نرشه هنا على الأكل ؟ » .
أبدأ ، إنه لم يكن لديه أية ثقة فينا .

وفي ذات يوم أعلننا الثورة ورفعنا راية العصيان ، وكان أول من وضع بذورها ونادى بسقوط الضوء ، هو أنور البارودي ، الذي جلس إلى عقب تناول إحدى الأكلات وقد أطرق برأسه وبدأ عليه الوجوم والتفكير ، ثم رفع رأسه وقال فجأة :

— إسمع .

— نعم .

— ما الذي يجبرنا على الصبر على كل هذا الأذى واحتمال كل ذلك الضيم ؟
— ماذا تقصد ؟ .

— أقصد ما الذي يجعلنا نحتمل هذا الخنزير الذي "ممم أجسادنا بالجواز والرمل .

— ومن الذي يطبخ لنا غيره ؟

— لا أحد ، نحن نطبخ ، هل تظن أن الطبخ عملية شاقة ؟ إنها أسهل مما تتصور ، إن الأمر لا يستلزم منا سوى شيء من الجرأة ، ما رأيك في أن نطرده ، ونبدأ الطبخ من الغد ؟ وكنا في رمضان والنهار أمامنا طويل ولا شيء يمنعنا من إجراء التجربة ، فلعلها ناجحة ولعلها تنقذنا من نير الضوء .
وفي الصباح ، تحرك البارودي إلى خيمة المطبخ ، ونادى

على الضَّوِّ ، نفرج إليه صاحبنا بوجهه اللامع الممتلئ ، وقد
علت وجهه ابتسامة الرضا وبدأ بالتحية قائلاً بدون تكليف :
— صباح الخير يا فندم .

وأشار البارودى بأصبعه إلى حيث خيام العساكر وقال :
— على الأورطة .

ولم يكن الضَّوُّ قد ظن شراً إذ لم يخطر على باله قط أننا
نستطيع أن نستغنى عنه فسأل البارودى ببساطة :
— حضرتك تريد شيئاً من الأورطة ؟ .

— أريدك أن تذهب إلى الأورطة ولا تترينا وجهك أبداً
ولم يخف على الضَّوِّ أن هنسك مؤامرة قد دبرت ضده
فهز رأسه وأجاب :

— حاضر يا فندم ، مفيش مانع أبداً .
وفي الساعة العاشرة أحضرت التعيينات وكانت تصرف
للضباط وقتئذ نفس تعيينات الجنود ، وكان الخضر في ذلك
اليوم : قرعاً ، أو على الأصح قرعة ، فقد كان كل ما أحضر
لنا في خيمة المطبخ هي قرعة ، وحيدة ، ولا أشك أن أى
قارىء — غير عسكرى — سيتساءل في دهشة : « قرعة »
واحدة لكل ضباط الأورطة ؟ .

ولست أشك أيضاً في أن أى قارىء عسكرى ، من

أبصروا خضار الجيش المصرى ، سيتساءل فى دهشة كذلك
« قرعة بأكلها لضباط أورطة ، لا ، لا ، هذه مبالغة ! »

والواقع أنها كانت . . قرعة واقية . . لا تقل بحال من
الأحوال عن الشامة . . الضخمة . . ونظر إلى البارودى
ونظرت إليه (ولم يكن هناك غيرنا من يعلم بالمؤامرة التى
دبرناها لطرد الضَّوء) . . ثم نظر كلانا إلى القرعة الشبيهة
بالقتيل وتساءلنا فى نفس واحد : « ماذا سنفعل بها ؟ » .

وفكر البارودى برهة ثم قال ببساطة :

— نعملها صينية .

— صينية قرع ؟ .

— ولم لا ، ألم نأكل فى حياتك صينية بطاطس ؟ .

— صينية بطاطس ، أى نعم أكلت ، ولكن صينية قرع ؟

— وما الفرق بين البطاطس والقرع . . هل سترفض

القرعة أن تعمل صينية ؟ .

ونظرت إلى القرعة السمينة ، ولم يبدل أنها يمكن أن

ترفض أى شىء فقلت له :

— لا . . لا أظنها سترفض .

— انتهينا .

ثم أمسك بالقرعة فى يده وقال :

— عليك التقشير ، وعلى التخريط .

ووجدت أنه سيبدأ في « استكرادى » من أول الأمر
فإن عملية التخريط أسهل مائة مرة من التقشير فقلت له :
— لا ، بل عليك أنت التقشير ، وأنا على الباقي .

وفكر البارودى برهة ثم قال :

— اسمع سنحضر الضو لتقشيرها ، ثم نطرده بعد ذلك .
وحضر الضو فقام بتقشير القرعة ، وقد بدت عليه
علامات الشبابة ، وعند ما انتهى من التقشير أشار له
البارودى أن يعود من حيث أتى .

وبدأنا في تخريط القرعة في إحدى الصواني ، ثم خرطنا
الطباطم فوقها ووضعنا فوق الخليط كمية لا بأس بها من البصل
ثم حشرنا اللحم في جوف الخليط ، وصببنا فوق كل ذلك
ما يقرب من رطلين من السمن .

وفرك صاحبى كفه وبدت عليه علامات الغبطة
والارتياح ثم قال متفاخراً :

— ألم أقل لك ؟ هذه هى كل « الشغلانة » ، ليس هناك
أبسط منها ولا أسهل .

وأشعلنا وابور الجاز ووضعناه أسفل الفرن الصاج
الأسود الذى أحضرناه معنا من القاهرة لمثل هذه الطوارىء

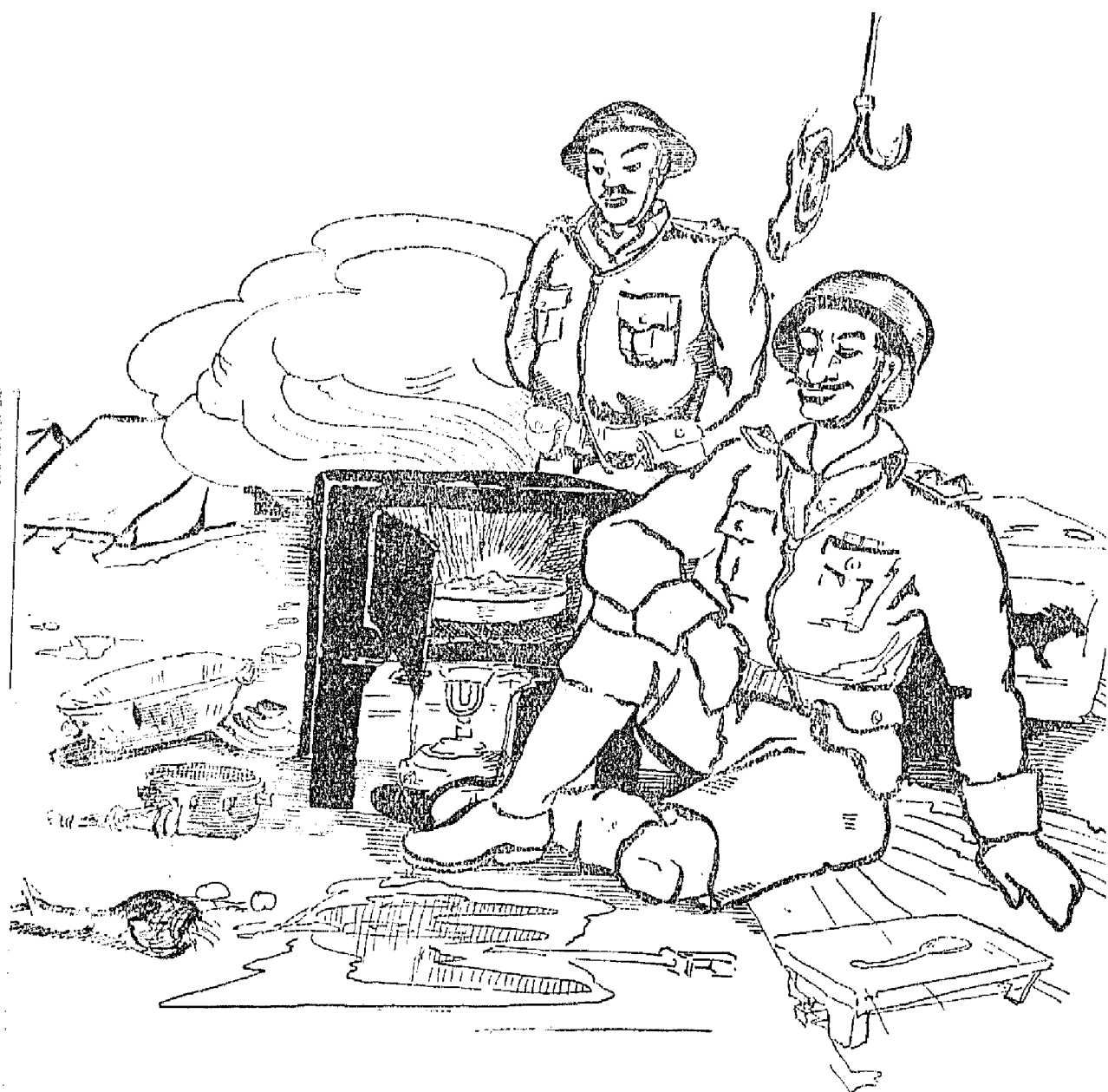
وهممنا بوضع الصينية داخله ، ولكننا توقفنا فجأة وقلت
لصاحبي :

— المالح ؟ لقد نسينا المالح ، وكدنا نشمت فينا الضؤ .
— آه ، لقد ذكرتنا ، تصور أننا كنا على وشك أن
نفسد الطبخة - كما يقولون - لأجل « شوية » ملح . أين المالح ؟
— لا أظن أن المالح وحده يكفي ، بل لابد من التوابل
الأخرى ، حتى تعطى الصينية طعماً ونكهة ، لابد من الفلفل
والكمبرة والكمون والبهارات ، ففي هذه الأشياء البسيطة
سر الطبخ .

والقيينا نظرة على صف العلب المرصوفة فوق المنضدة
وقال صاحبي :

— أظن أن هناك أصناف معينة من التوابل تلائم
الصواني ، ويتحتم علينا أن نعرف بالضبط ماهي الأصناف
التي تلائم القرع ، وإلا فسدت الصينية ، ثم لا تنس أنها
لا توضع إلا بنسبة معينة وكميات محددة .

وبدت لنا مسألة وضع التوابل مشكلة عسيرة ، ولم نر
خيراً من أن نرسل إلى الضؤ نسأله - دون أن يحضر - عن
أنواع وكميات التوابل التي توضع في صينية القرع .
وجاء المرسال يخبرنا أن الضؤ الخبيث يقول :



— العلب عندهم، يأخذون منها ما يشاءون ، هي كيمياء ؟
ونظر إلى البارودى وتقدم إلى العلب وعليه سياء من
نوى أمراً جللاً وقال :

— دعك منه ، خليها بالبركة ، وربك يستر .
وبدأت التوابل تتدفق على الصينية بغير حساب ، هذه
كسبرة ، وهذا كمون ، وهذه مستكة ، وهذا حبهان ، فلفل
أسود ، فلفل أحمر ، كله خير ، كله بركة .
وأخيراً دخلت الصينية الفرن تنهذى باسم الله حافظها
ومنضجها .

وجلسنا بجوار « المحروسة » ننتظر نضجها ، وبعد خمس
دقائق فتح البارودى الفرن ليرى ما تم بها . . فوجدها
بالطبع كما هي .

وأصابنا الملل ونحن جالسين أمام الفرن نفتحه كل دقيقة
فنجد الصينية كما هي ، ونظر البارودى إلى وقال مستشيراً :
— ما رأيك فى أن نحضر الضو ليجلس - فقط - أمام
الصينية ؟ .

— فكرة طيبة بشرط أن يجلس على الحياض فلا يتدخل
قط فى شئون الصينية .

وأحضرنا الضو ، وذهبنا إلى خيمتنا وجلسنا نتسلى

بالقراءة ، وبعد نصف ساعة ذهبنا لنرى ما تم في أمر الصينية
وفتحنا الفرن ، ونظرنا إليها فإذا بها خضراء من غير سوء .
وهن صاحبي رأسه في دهشة متسائلا :
— لماذا لا تستوى ؟ .

ثم نظر إلى الضو في غيظ وهمس إلى :
— يخيل إلي أن الخبيث يرفع الوابور من أسفل الصينية
عندما نذهب ثم يضعه ثانية عندما يحس بنا .
ونظرت إلى الضو الشامت الساخر وإلى الصينية الخضراء
التي تأتي النضج وقلت له متشككا :

— جائز . . لا أستبعد على الخبيث أى منكر .
وعدنا إلى الخيمة وبعد نصف ساعة أخرى ذهبنا «نطل»
على الصينية فإذا بها كما هي ، وأشار البارودى إلى خيام
العساكر وقال للضو :

— إذهب ولا ترينى وجهك ، وإلا جنيت على نفسك .
وجلسنا أمام الصينية كأننا أسدا قصر النيل ، والوابور
بحوارنا يئز ، والصينية - ساحها الله - لا تشعر ولا تتأثر .
وقرب ميعاد الإفطار ، والصينية لم يفارقها الاخضرار
وأخيرا سلمنا أمرنا لله وأخرجنا فآدهشنا أنها استوت
رغم أن لونها لم يتغير ، واعتبرنا الأمر حدثا في عالم الطبخ .
ودق المدفع وأقبل الضباط على خيمة الأكل ، وفوجئوا

بالصينية تتوسط السفارة ، وجلست أنا والبارودى نفرًا
أيدينا وقد كسونا وجوهنا علامات التواضع وإنكار الذات
وقلنا ببساطة : « نحن الذين عملناها » .

ونظر إلينا (على مقلد) « قائد السكتية » بعد أن تذوق
اللحمة الأولى ثم قال فى حسرة :
— والله عملتوها .

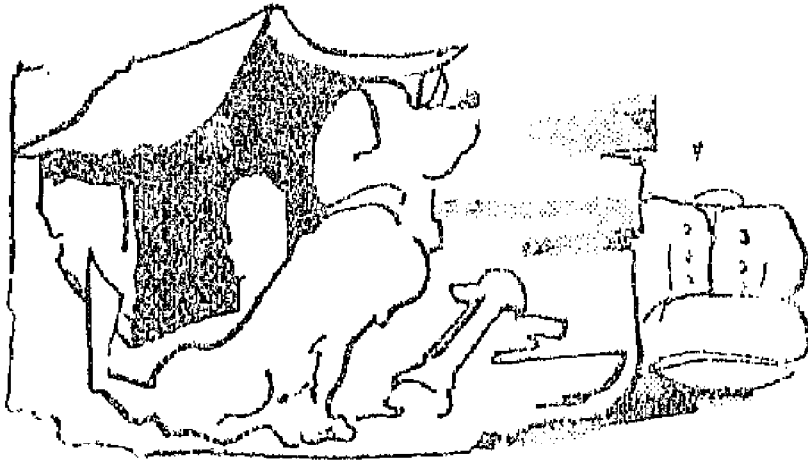
وذقنا الصينية وإذا بمنصر الجاز متوفر فيها كل التوفير .
وتبادلت أنا والبارودى النظرات .. نظرات الندم على
أننا تركنا الضوء منفرد بالصينية .

ولكن هل ترى الضوء حقاً ، قد انتهر فرصة مخلوه
بالصينية فصب عليها الجاز ؟ .

لا نظن فقد كان الضوء مظلوماً .. ولم نكتشف أنه
مظلوم ، إلا عندما فرغت صفيحة السمن ، وأحضرنا صفيحة
جديدة ، فانقطع الجاز ، لقد كانت صفيحة السمن الأولى
هى منبع الجاز فقد كان سمنها مخلوطاً به !! .

وعند ما كانوا يسألوننا بعد ذلك ما الذى يجبركم على
احتمال سوء الضوء !! اكنا نجيب : ما هو أسوأ منه .

ولم يكن هناك أسوأ منه .. بل أسوأ من أى شئ على
وجه الأرض سوى « صينية القرع » .



هذه القصة يقصها علينا طفل في السادسة
من عمره ، فيحملنا بها الى دنياه . . دنيا
قد نراها الآن تافهة ولكننا لا نستطيع
أن ننكر أننا قد عشنا فيها أو فيها يشابهها
زمناً رغباً . . زمناً ليت الليالي التي أمضته
ترجمه . .

فيسيل كلب ..

كننا نجلس في مخبئنا السرى — أنا وأخى الأكبر —
وهو « عشة » من البوص على شاطئ النيل كانت
تستعمل مصلى قبل أن يبنى المسجد الجديد — وقد نشر
أخى أمامه صورة كلين أحدهما رابض والآخر مضطجع ،
وكان قد قطع الصورة من إحدى المجلات . ونظر إلى أخى
متسائلا :

— مارأيك ؟

فأجبهته وأنا أحملق في الكلين بنظرات معجبة :

— رائعان !

وسادت فترة صمت كان أخى ينصت خلالها بأذنيه كأنه
يتسمع شيئا ثم قال :

— يخيل إلى أن هناك من ينادينا .

ثم طوى الصورة بعناية ونهض قائلا :

— لا بد لنا أن نخفى الصورة وإلا رآها أبى . . أين

تظننا نخفيها ؟

ولم يترك لى فرصة الإجابة بل أردف قائلا :

— سأخفيها في حذائه .

ونظرت إليه في دهشة وقلت له معترضا :

— ولكن

ولكنه لم يدع لي فرصة الحديث إذ كان يستطيع
التحدث أسرع مني ، وكانت كل محاولة في مناقشته تذهب
سدى ، لقد كان في التاسعة وكنت في السادسة ، واستمر
يقول :

— ليس لدينا مكان آخر ، حذاؤه هو المكان الوحيد .
وتخيلت حذاء أبي . . ثم تخيلت أبي نفسه ، وأحسست
برعب لمجرد التخيل ، وهزرت رأسي بشدة ولكنه قال :
— لا تكن أبله . فأنت تعلم أنه لا يرتديه إلا في المولد .
أو عند مقابلة الحكام ، وكلاهما نادر . . سأعطيك الصورة
لتتولى أنت إخفاءها في الحذاء .

ولكني هزرت رأسي مرة أخرى . لقد كنت أكره
أن ألقى بيدي إلى التهلكة ، وكنت أرى في المسألة جرمين :
أحدهما إدخال صورة كلاب في الدار ، والثاني العبث
بحذاء أبي . . فالحقاب مضمون . . لأن أبي لا يرحم
مذنّباً ولا يغفر خطيئة . لقد كان رجلاً ضخماً يطأ طيء
رأسه عندما ينفذ من أي باب ، وكانت أمي تقول
عنه إنه طيب القلب ، ولكني لم أك أصدقها لأنني مارأيته
كذلك قط ، وكيف أراه طيباً وقد خصص لنا عصا

لتأديبنا إذا أخطأنا . . أو إذا خيّل له أننا أخطأنا .

وعندما عدت إلى الدار ، ذهبت إلى أبي وقلت له :

— نريد كلباً . . أنا وأخي .

ورفع إلى رأسه في دهشة وقال :

— ماذا تريد أن تصنع به ؟

ولم أعرف بهم أجيب ، ووقفت أمامه صامتاً ، وأخيراً

تكلم هو قائلاً :

— لا فائدة في الكلاب . . إنها لا تؤكل ولا تشرب .

وعدت إلى أخي الذي وثب من فراشه وسألني متلهفاً :

— ماذا قال لك ؟

— لقد قال إنها لا تؤكل ولا تشرب .

وهنا دخلت أمي ، فقلت لها إنني لا أحب أبي ،

فوضعت أصبعها على فمها محذرة ، وقالت :

— إن الأطفال يجب أن يحبوا آباءهم .

— وهل كل الآباء في رداة أبي ؟ !

— إنه ليس رديئاً ، هو فقط لا يفهم عقلية الأطفال .

هيا إلى الفراش .

وغادرت الغرفة ، وسمعتها تتحدث إلى أبي بصوت لم

أميز منه إلا بضع كلمات « إنهم أطفال ، ولا بد لكي تفهمهم

أن تفكر بعقلهم ، ، ولم أفهم معنى ماتقصد ، ولم أهتم بذلك
كثيراً ، فقد كانت هناك أشياء كثيرة لا أستطيع فهمها .
واضطجعت على الفراش بجوار أخى ، وسمعتة يقول
كأنه يحدث نفسه :

— الكلاب لا تؤكل ولا تشرب !! والله لو أحضرنا
كلباً ! لأكاه وشرب دمه . . ! إنه رجل مخيف !!
ومرت فترة طويلة دون أن أنام فقد كنت مستغرقاً
فى التفكير ، وأخيراً سألت أخى :
— أظنه يأكاه كله ؟ بجلده ؟

وكان أخى قد أغفت عيناه ، فأجابنى وهو نصف نائم :
— يأكل ماذا ؟
— الكلب .

— لا . . لا أظنه حقيقة من آكلى الكلاب . نم . نم .
دعك منه .

ومرت بضعة أيام بعد ذلك . . وفى ذات يوم عاد
أخى من المدرسة فقذف بكتبه إلى المائدة ثم أشار إلى أن
أتبعه ، ودلفنا سوياً إلى حجرتنا فهمس فى أذنى :
— أين أبى ؟
— لقد خرج .

— إلى أين ؟ ألا تعرف ؟

— إلى المقهى أو الجامع .

— إسمع . . لقد حصلت على شيء عجيب جداً . ماذا
تظنه ؟ .

وهزئت رأسي متسائلاً ، فاقترب بغتة من أذني ثم
همس قائلاً :

— لقد حصلت على طفل .

— طفل ! ؟ طفل حقيقي ؟

— أجل . . أجل . . لقد وضعته في العشة على الشاطئ
وسنتسأل الآن إلى هناك .

— ولكن كيف حصلت عليه ؟

— لقد عثرت عليه .

— وهل هو ملكنا الآن ؟

— ملكي أنا ، ولكني سأعيرك إياه في غيبتى عنه .

وعدونا إلى « العشة » ، وهناك وجدنا الطفل يبكي فرفعه
أخى بين ذراعيه ، ونظرت إليه وقد تملكني الإعجاب
وقلت في دهشة :

— إنه طفل حقيقي ! !

ثم وجهت الحديث إلى الطفل أسأله :

— كيف حالك ؟

ولسكنه لم يجبنى بكلمة ، فقلت في نفسي ربما كان أبله ،
أو أصم لا يسمع ، ولكن أخى أخبرنى أنه لم يتعلم الكلام
بعد ، وأنى كنت مثله فى يوم ما . . فلم أصدقه لأنى لا أذكر
أننى كنت لا أستطيع الكلام يوماً .

وطلب منى أخى أن أجلس بجوار الطفل حتى يذهب
إلى الدار فيسرق له قليلاً من اللبن . كما طلب منى أن أغنى له
إذا بكى ، فقلت له :

— هذا هين ، وسأغنى له حتى ولو لم يبك .

وذهب أخى ، وجلست إلى جوار الطفل وتبادلنا
النظرات ، وسألته عن اسمه ولسكنه لم يجب بكلمة ! !
وخطر لى أن أحمله بين ذراعى كما فعل أخى ، وحملته فعلاً ،
ولسكنى سمعت وقع أقدام آتية من الخارج فوضعتة جانباً
وجلست بجواره ، وأحضر أخى اللبن فجرعه الطفل بنهم ،
ثم طلب منى أن أعود إلى الدار حتى لا تقلق والدتنا .
وعدت إلى الدار فوجدتها جالسة ترتق بعض ثياب أبى
فسألتها قائلاً :

— عندما كنت طفلاً . . أكنت حقاً لا أتكلم ؟

ونظرت إلىّ فى شيء من الدهشة وهزت رأسها بالإيجاب
فعدت أسأل :

— تماماً كالقطط والكلاب ، وبقية الحيوانات ؟

فأجابت ضاحكة :

— أجل .. مثلها تماماً .

— ولكن الطفل خير من القطعة ، ومن الكلب أيضاً .

وبعد فترة وبجيزة أقبل أخى ، فتناولنا العشاء وذهبنا

إلى الفراش ، وكان رأسى مشغولاً بالطفل ، وبما أنوى أن

أفعله معه ، وأى إسم سنطلقه عليه ، ولم يكمد يستقر بنا المقام

على الفراش حتى سألت أخى :

— بماذا نسميه ؟

فدفعنى أخى بيده قائلاً :

— انخفض صوتك وإلا سمعونا .

فكررت السؤال فى صوت هامس ، ولكنه أعلى من

الصوت الأول . فأجبنى بقوله :

— لم أفكر بعد .. هل تقترح شيئاً ؟

— « بوبى » .

— لا تكن غيباً .. إن هذا اسم كلب .. إني أرى أن

نسميه « عادل » .

— « عادل » إسم لا بأس به ، ولكنى أفضل إسم

« بوبى » !!

— قلت لك إن هذا إسم كلب . . فلا تسكن عنيداً . . .
ثم لاتنس أن الطفل طفلي ، وأنى حر فى أن أسميه كما أشاء .
وسمعنا صوت أبى وأمى يذهبان إلى الفراش ، وأطفئ النور
وساد السكون الدار ، فنهض أخى من الفراش وهمس فى أذنى :
— سأذهب إلى الطفل لألفه بإحدى «الفوط» وأنومه .
— أتعرف كيف تنومه ؟

— أجل . . إنى أذكر ما كانت تفعله أمى معك قبل
النوم ، عندما كنت فى مثل سنه .

وكان أخى يذكر عنى كل شىء وأنا طفل . أما أنا فكنت
لهدهشى لا أذكر عنه شيئاً . . لقد كان لا شك أكثر ذكاء ،
وبعد هنيهة أبصرته يقفز من النافذة ، بعد أن أنبأنى أنه
سيعود قبيل الفجر .

وفى اليوم التالى كان أبى وأمى يظنان أن أخى قد ذهب
إلى المدرسة كعادته . . ولم يعلما شيئاً عن بقاءه طيلة اليوم
فى السكوخ بجوار الطفل وكان متعباً ، بعد أن قضى الليل
طوله على الأرض ، وقد أزعجه الطفل بكثرة بكائه ، إلى
أن اضطر إلى السكوت والنوم ، وقد نال منه التعب والأعياء .
وقضينا يوماً لطيفاً مع الطفل ، وقد تبين لى أن له ثلاث

أسنان ، وبدالى أنه يستطيع الوقوف ولكنه لا يرغب
فى ذلك بدافع من الكسل والخمول .

ومضت الليلة التالية كسابقتهما ، وفى الصباح أنبأنى أخى
أن رأيه قد استقر على أن يحضر « سوسو » لى تتولى
أمر الطفل . . فهى ولا شك أقدر منا على تولى أمره
والعناية به . . فهى امرأة والنساء أدرى من الرجال بهذه
الأمور . . وهى على أية حال لا بد أن تتدرب من الآن على
ذلك . . ولا شك أنها ستسر كثيراً بالطفل . . فهو طفل
« جاهز » لم تتعب فى حمله ولا وضعه .

وكان أخى كثيراً ما يحدثنى عن سوسو . . وهى ابنة
جيراننا فى حوالى الثامنة ، وكان يخبرنى أنه ينتظر حتى يتخرج
من المدرسة فيشتري طائرة ليطيرها سوياً إلى بلاد بعيدة . .
وأنبأنى أنها لم تمنع فى الفكرة ، بل رحبت بها . . وقد سألته
إن كان ينوى أن يأخذنى معه فوعدنى خيراً .

وبقيت مع الطفل حتى ذهب أخى وأحضرها ، ووقفت
تنظر إلى الطفل فى دهشة ثم أقبلت تربت عليه وحملته فى
رفق متسائلة :

— أهذا هو ابننا . . ؟ إنه جميل جداً . . إنه يشبهك
كثيراً . . ما اسمه ؟



فقلت في عجلة :

— بوبي ١١ .

فنظر إلى أخي شزرأ ثم قال بلهجة تشبه كثير أهجة أبي :

— يا لك من حمار ١١ قلت لك إن هذا اسم كلب .

ثم التفت إليها قائلاً :

— اسمه عادل .

وكانت سوسو في تلك اللحظة تصلح للطفل ثيابه ،

فنظرت إلينا نحن الإثنين شزرأ وقالت بنفس لهجة أخي :

— يالكما من حمارين . . . إنه بنت .

ثم أقبلنا على الطفل نسمينه فإذا به حقاً بنت .

ونظر إلى أخي قائلاً بعد برهة :

— اذهب وأحضر اللبن .

فانطلقت أعدو إلى الدار ، وفي الطريق أبصرت جماعة

من أهل البلدة بينهم « شيخ البلد » وقد ساروا كأنهم يبحثون

عن شيء . . فلم آبه لهم وانطلقت في طريقي ، وعندما وصلت

إلى الدار وجدت أبي قد وقف بالباب وأمامه أحد مدرسي

المدرسة وسمعته يقول له :

— أجل . . منذ يومين . . اليوم وأمس . . لم تر له

وجهاً .

ونظر إلى أبي نظرة أوجست منها خيفة ، وسألني :

— أين أخوك ؟ .

— على الشاطئ .

— قل له أن يحضر .

وانطلقت إلى أخي أسوق إليه النبا ، ورأيت الاصفرار

قد علا وجهه ، ثم التفت إلى سوسو قائلاً :

— أبقى مع الطفل حتى أعود .

وعندما التقينا بأبي أمسك بيد أخي وسحبه إلى مخزن

الحبوب ، وبعد برهة عاد إلينا وحده وسأله أمي :

— أين الولد ؟

— لقد حبسته في (الحاصل) . . إنه يأبى أن يقول

أين كان في خلال هذين اليومين ، وسيبقى هناك بلا طعام

حتى يقول الحق .

وحاولت أمي أن تعترض ، ولكنه أسكتها بنظرة

صارمة . .

وفي المساء تعشيت وذهبت وحدي إلى الفراش ،

وقد شغلني التفكير في أخي وسوسو والطفل ، ولم أكد

أحس أن أبي وأمي قد ذهبا إلى فراشهما حتى قمت إلى النافذة

وقفزت منها ، فستقطت على ركبتي وأحسست بالدماء تسيل
من إحداهما .

وسرت أتلمس طريق في الظلمة الحالكه ، والخوف
يتملكني وخیل إلى أنى أبصر أشباحاً تتراقص أمامي ،
ولكنني حاولت أن أهدى نفسي ، ووصلت إلى (الحاصل)
وصحت أناذى أخى فى صوت هامس مبحوح ، فأجابني
أخيراً ، وسألني أن أذهب إلى الشاطئ لأرى ماذا فعلت
سوسو بالطفل ، وحاولت أن أتقدم ، ولكنني رأيت
شيئين يبرقان فى الظلمة لم أشك فى أنهما عينا عفريت مخيف
وتسمرت قدماي فى الأرض وقلت لأخى إنى أبصر أمامي
عفريتاً وسألته ماذا أفعل ، فأجابني بأنى واهم ، ولكنني
أكدت له أننى أبصره هناك واقفاً فى نهاية الطريق .

وصمت أخى برهة ، ثم طلب منى أن أعود إلى الدار
وأخبر أمى .. ولكنني رأيت العفريت يقترب منى فصصحت
مستهجداً وأخذت أعدو أمامه وهو يتبعنى حتى وصلت إلى
الشاطئ وهناك وجدت سوسو قد وضعت الطفل على
ساقها وأخذت تربت عليه وتغنى له .. ثم سألتني عن أخى

فقلت لها إن أبي قد حبسه . . . ولكنني لم أكد أتم قولي حتى
أبصرت أخي قد أقبل علينا يلهث فقد استطاع أن يقفز من
نافذة (الحاصل) .

وفي نفس اللحظة سمعنا في الخارج وقع أقدام كثيرة
وأصواتاً تتحدث ، ثم أبصرنا حشداً من الناس يقتحم
« العشة » . . . واستطعت أن أميز على ضوء المصباح الذي
حمله أحدهم أنهم أولئك الجمع الذين كانوا يبحثون عن شيء ،
وكان معهم بعض رجال الشرطة .

وأمسك أحدهم بالطفل يحتضنه وساقونا أمامهم إلى
العمدة ، وهناك وجدتهم قد تكأ كأوا على أخي وخيل
إليّ أنهم يتآمرون على إرساله إلى السجن ، وتسالت من بين
الجمع وهممت بأن أعدو إلى الدار لأخبر أبي . . . ولكنني
تذكرت العفريت . . . فعدت إلى سوسو وهمست في أذنها
بأن تذهب فتخبر أبي .

ورأيت الشرطي قد أمسك أخي فهجمت عليه وضربتة
بقبضة يدي ، وصحت في الجميع إن هذا الطفل هو طفلنا ،
ولكنهم لم يحسوا بي واستمروا في نقاشهم وهرجهم .
وفجأة لحت أبي بجسمه الطويل قد أقبل في الظلمة ،

وبجوارهم سوسو تعدو إلى جانبه ، وسرى بين الجميع الهمس
ووقف الشرطي مكانه وبدأ لي جلياً أن الجميع كانوا يخشون
أبي تماماً كما نخشاه . . لقد كان رجلاً خيفاً .

وأقبلوا عليه يحيونه باحترام ثم سلموه أخى ، ورأيتنا
نعود أدراجنا دون أن نأخذ الطفل فقلت لأبى :
— إننا لم نأخذ طفلنا . . إن أخى هو الذى وجدته ،
وهو ابنه ، هو وسوسو .

ولكنه جذبني من يدي ودفعني أمامه . . .
ولم نسر عدة خطوات . . حتى لمحت أمراً جليلاً ،
واكتشفت شيئاً خطيراً .
لقد كان أبى يرتدى الحذاء !!

وقرصت أخى . . . وأشارت إلى الحذاء . . فعلت
وجهه علامات الذعر وبدأ عليه كأنه ينوء تحت حمل ثقیل
من المصائب ، وأنه قد أضى في حالة يأس .

ودخلنا إلى الدار وأقبلت أمى تحتضن أخى . . ولم
ينبس أبى ببنت شفة ، ولكنى لم أشك في أنه قد أعد لأخى
عقاباً خطيراً . . فقد كانت الجرائم متعددة : غياب عن
المدرسة ، وسرقة الطفلة ، وأخيراً صورة الكلاب التي
لاشك في أنه اكتشف وجودها في الحذاء .

ودلفنا إلى حجرتنا في سكون ، وربت على ذراع أخى
وقلت له أهدى من روعه :

— لا تخش شيئاً .

— إني لا أخشى شيئاً . . لأنه لن يستطيع أن ينالني
بسوء . . . سأهرب من الدار ولن أعود أبداً . . فلست
من الحق حتى أنتظر لكي أموت من الضرب .

— إذن سأسافر معك .

— حسناً سوف ندبر أمرنا معاً .

— وسأطلب إلى أمى أن تنفر معنا أيضاً .

— لا تكن أحمق . . . إياك أن تذكر لها شيئاً

عن ذلك .

— ولكننا لا نستطيع تركها وحدها .

— إذن ابق أنت .

وفي تلك اللحظة سمعت صوتاً عجيباً لم أعتد سماعه من

قبل . . سمعت أبى يضحك !!

وأرهفنا السمع مشدوهين ، ولكنه كان يضحك

فعلاً . . وسمعناه يقول لأمى :

— ألم ترى ابنة ابنك ؟ لقد أصبحت جدة . . أتذكرين

عندما كنت طفلة . . وكنت تحملين الوسادة على كتفك

وتدعين أنك قد أنجبت طفلة . . وتطالبين مني أن أحضر لها
اللبن ؟ لقد كان ابنك خيراً منا فقد سرق طفلة حقيقية
وأعطائها لسوسو . . لقد أنجبا طفلة « جاهزة » . أتذكرين
ذلك الزمن ؟

وسمعت أمي تجيب ضاحكة :

— ليت الليالي التي أمضته ترجعه .

ثم سمعنا صوت قبلة . . وأردف أبي يقول .

— لقد وجدت في الحذاء هذه الصورة .

وهنا أحسست برجفة . . وخيّل إلى أني أستطيع

أن أسمع دقات قلبي ، وسمعت أبي يقول :

— أخبريهما بأنني سأحضر لكل منهما كلباً ، على

ألا يعبثا بالحذاء بعد ذلك .

وقفزت إلى أخي أحتمضنه . . . وأخذنا نرقص

في الحجرة . . .





هنا أضع أظفاني .. هنا يهبط الوحي ..
وسط ذلك الصمت الخيم والسكون السائد ،
وبين أضواء الشموع الذائبة المرتجفة ..
هنا في هذه الأغوار السحيقة والدياجير
المعتمة التي تبدو كأنها أعماق الأبدية
اللانهاية .

مشرق القناعات

سيرياالى . . .

لى صمىو

ومند أن سمعت بمبدأ السيريااليزم . .
وشاهدت بعض الرسوم السيريالية ، أيقنت من أن صاحبي
هذا لابد مندفع إلى أحضان السيريالية ، متبوء عرشها في
أقرب حين بلا شريك ولا منازع .

وصاحبي فنان أصيل .. فنان جوهرآ ومظهرآ ، أوهو
صورة نموذجية لفنان لا أكاد أقارن به نفسى ، حتى أقنع
تماماً أنه ليس بي من سمات الفنان شيء ، وإني مخلوق طبيعي
مادى جامد بارد خلو من كل ما يميز عبيد الله الفنانين .

وأذكر ذات مرة ؛ أنى ذهبت لزيارة رجل كبير محترم
من أهل العلم والعرفان ، وجلس الرجل يرحب بي مقدماً لى
علبة سيجاره قائلاً :

— سيجارة ؟

— أشكرك جداً ، أنا لا أدخن .

— عجيبة ! إذاً أحضر لك قهوة ؟

— ولا أشرب قهوة .

— شاي إذا ؟

— ولا أذوق الشاي .

وضحك الرجل وغمز بطرف عينيه وقال متخابثاً :
— لو كان عندي كأساً من الويسكي لأتحفك به ، لأنه
يعز عليّ أن تزورني ولا أقدم لك شيئاً .
— أنا لا أذوق الخمر .

— مدهش . . لا سجائر ، ولا قهوة ولا شاي ، ولا
خمرة ، ولا حتى أي مكيف آخر ؟
— أبداً .. أبداً ، إني غير ذي « كيف » ، لا سجائر ،
ولا خمر ولا ميسر ، ولا ، ولا .

— ماشاء الله ، ماشاء الله . هكذا الاستقامة وإلا فلا .
لا بد إنك تصلي وتصوم .
— أبداً ، أبداً .

— لا تصلي ولا تصوم ؟
— ولم أصلي وأنا لا أرتكب ما تنهى عنه الصلاة ؟
ومم أستغفر ربي .. وأنا ما أتيت ذنباً . . إني مخلوق كافي
خيري شري .. إني منهي عن الفحشاء والمنكر . . « خلقة » .
وأغرق الرجل في الضحك ، وظنها مزحة .

ولكنني فعلاً كذلك ، لا سجائر ولا قهوة ولا شاي
ولا خمر ولا حشيش ، ولا صلاة ولا صوم ولا شيء أبداً . .
أبعد كل هذا أكون فناناً ؟

أما صاحبي . . فقد كان فناناً بمعنى الكلمة . . فهو فوق
ارتكابه لسلسلة الأشياء المبينة عاليه ، من خمر ومكيفات
وصوم وصلاة . . كان مخلوقاً معنئاً في الغرابة . . مفرطاً
في الشذوذ .

وكان صاحبي - ولم يزل بالطبع - موسيقاراً من
أساطين الموسيقى ومن عمدتها في هذا الجيل ، وكنت قد
سمعتُه وسمعت عنه كثيراً قبل أن ألقاه ، وكنت أميزه دائماً
بغرابة موسيقاه وطرافة أساليبه ، فهو يكاد يكون بين
الموسيقين نسيجاً وحده .

وعندما لقيته أول مرة دعاني إلى زيارته في « المعبد » .
وكان لقاءه حاراً مليئاً بالحفاوة والترحيب ، إذ تفضل
واعتبرني فناناً ، رغم خلوي من كل مميزات الفنان ، وعندما
سألني زيارته في المعبد ، لم يحاول أن يزودني بأي توضيح
عن هذا المعبد ، كأنما هو شيء كان لزاماً عليّ أن أعرفه . .
أو كأن كل إنسان له معبد يزوره الناس فيه .

وخجلت من أن أستوضحه ، خشية أن يتهمني بالجهل ،
وخشية أن يعرف أنه ليس لي معبد ، لأنه لو كان لي معبد ،
لما سألته عن معبده .

وتركتها تمر ، دون استفسار أو استيضاح . . معتقداً

أنها دعوة عابرة ، أو « عزومة مراكية » ، وأنه من الخير
ألا أكشف نفسي ، مادمت لن أذهب .

وانغمرنا في الحديث ، منسجمين تمام الانسجام ، حتى
حان وقت الانصراف ومددت يدي أودعه وأخبره بأنني
سعيد بلقائه متشرف بمعرفته ، وإني أتمنى أن أراه كثيراً .
وضغطت على يدي بشدة ، وقال في لهجة مصرية مؤكدة :
— أنا منتظر زيارتك للمعبد .

— إن شاء الله .

— اليوم الساعة الثامنة والنصف مساء .

ورأيت الدعوة جادة ، والعزومة مؤكدة ، فبدأت على
وجهي التردد . . وهممت بأن أعتذر . . ولكنه أردف
مؤكداً :

— لن أقبل منك اعتذاراً ، لا بد من حضورك ، إني
أتوق إلى أن أجلس معك جلسة طويلة ، وستسرك الجلسة
كثيراً . إني واثق من ذلك ، فأنت فنان يلائمك جو المعبد
الشاعري الهادي . . أنا في انتظارك .

وكان هذا بمثابة أمر منه بالحضور ، ولم يكن هناك داع
للتردد ، لاسيما وأنه كان إنساناً رقيقاً مهذباً حلو الحديث ،
لطيف المعشر والمحضر . . وأنه لم يكن — فيما عدا مسألة

المعبد — يبدو عليه أى مظهر من مظاهر شذوذ الفنانين . .
ولا سيما أيضاً أنه وفر على حرج سؤاله عن المعبد بقوله من
باب الإيضاح :

— لن تجد كثير صعوبة فى الاستدلال على المعبد فهو
كائن فى شارع كذا رقم كذا .
ثم بدأ يشرح لى بالتفصيل كيفية الوصول إلى المعبد .
ولم أحاول — رغم جهلى بالمنطقة التى يقع فيها المعبد — أن
أستزيده إيضاحاً فقد كرهت لنفسى أن يبلغ بها الجهل هذا
الحد ، وأن أبقى على قيد الحياة فى القاهرة ثلاثة وثلاثين
عاماً ، دون أن أعرف أن فى القاهرة معابد . . ولا أسعى
لرؤية بعضها .

وفى الساعة الثامنة مساء بدأت السعى للمعبد . . وظللت
أدلف من شارع إلى شارع . . وكان الحى مظلم مقفر ،
يقع فى طرف من أطراف القاهرة المجاور للبقابر ، وأخيراً
وصلت إلى الشارع المطلوب . . وبدأت التفتيب عن النمرة ،
ولم أدقق كثيراً فى البحث عن النمرة . . إذ كنت أعتقد أن
المعبد غرض شهير مميّز . . وأنه لابد مسترعى التفاتى وسط
غيره من البيوت العادية القائمة فى الشارع .
وقطعت الشارع ذهاباً وإياباً دون أن يلفت نظرى مبنى

غير عادى وسط البيوت القائمة فى الظلمة . . لا مآذن ، ولا
قباب ، ولا أى هيكلى ينم عن المعبد .

وهكذا لم أبدأ من التدقيق فى البحث عن الرقم
المطلوب . . وسرت أقرأ أرقام الدور واحداً واحداً . .
حتى وقفت أخيراً أمام الرقم المقصود .

عجباً ! إنه بيت عادى كغيره من بيوت الشارع .

لا بد أن يكون هناك خطأ أو لبس ، إذ ليس على البيت
أى سمة من سمات المعابد ، ووقفت لحظة متردداً أمام البيت
وكان بيتاً عادياً مكوناً من بدروم ودورين وتحيطه حديقة
صغيرة وسور حديدى .

ومددت يدى إلى الجرس وضغطت عليه وقلت لنفسى :
— إسأل . .

وسمعت صوتاً يصيح من البدروم :
— مين ؟

وهنا وضحت المسألة ولم يعد هناك معنى للتردد ، فقد كان
الصوت صوت صاحبى الفنان ، ولم أحاول السؤال بالطبع
بل دفعت الباب الحديدى ودخلت أتلهس طريقى فى ظلمات
الحديقة إلى باب البدروم .

وسقط على الضوء الخافت الخارج من الباب ، فاستطاع

صاحبي أن يميزني واندفع في سيل من الترحيب الحار قائلاً :
— أهلاً .. أهلاً .. يا مرحباً .. تفضل نوّرت المعبد .
وتفضلت .. ولكنني قطعاً لم أنير المعبد ، فقد استمرت
الظلمة الجاثمة في أرجائه والتي لم تفلح في إضاءتها ذبالة الشموع
الخافتة .. جاثمة كما هي .. لم تتأثر قط بدخولي .

وتلفت حولي ألحصى المعبد .. فوجدته بدروم عادي
مقفر خرب .. مظلّم رطب . لا يفترق عن أي بدروم آخر .
إلا في أن صاحبنا الفنان زاد من مظاهر الفقر والخراب ،
وأمعن في إبرازها فاصطنع من أعمال الديكور والزخرف
شقوق ظاهرة في الجدران وتهديم في الأركان .. وإسقاط
للبياض في الأسقف وهضاب ووهاد في الأرض .. وبين
مظاهر الخراب والبؤس هذه وضع أثاث المعبد وهو بيانو
في أحد الأركان ، وعود معلق في ركن آخر .. ومقاعد
ووسائد وأرائك متفرقة هنا وهناك .

وطاف بي صاحبي في أرجاء المعبد .. طواف معجب
متفاخر .. ثم استقر بنا المقام في إحدى الحجرات الرطبة
العفنة المظلمة .

ومرة أخرى كرهت نفسي .. فقد أحسست أني غير
فنان .. أو فنان غير أصيل .. إذ لم يصادف المعبد هوى

فى نفسى ولم أشعر و أنا جالس وسط هذا الخراب والرطوبة
والظلمة بارتياح وانسجام .. ومع ذلك فلم أكن أملك إلا أن
أوافق صاحبى على إعجابه وطربه .. فإن خجلى يدفعنى دائماً
إلى أن أكون منافقاً كبيراً .

قال صاحبى :

— هنا أضع ألحافى .. هنا يهبط الوحى .. وسط ذلك
الصمت المخيم والسكون السائد وبين أضواء الشموع الذائبة
المرتبجة .. هنا فى هذه الأغوار السحيقة والدياجير المعتممة ،
التي تبدو كأنها أعماق الأبدية اللانهائية .. هنا فى هذا المعبد
الملئ بالسحر والطلاسم .

وهزئت رأسى وقلت موافقاً وأنا أزج فى قولى ببعض
مترادفات الأبدية واللانهائية والدياجير :

— أجل ! أجل ! إن سحره عجيب .. إنه يبدو كأنه
كهف الأقدار يمتد من بطون الماضى إلى وهاد الأبد .
وطال بنا الحديث فى كهف الأقدار بين الأغوار
والدياجير والماضى والأبد .. حتى حان وقت انصرافى
فودعته وانصرفت .

تلك كانت المرة الأولى لزيارته ، وطالت بنا الفرقة حتى
التقيت به أنا وصديق لى ذات مرة فى إحدى المحلات العامة

فأصر على أن أزوره في تلك الليلة أنا وصاحبي .
ورحبت بالدعوة فقد كان - كما سبق لي القول - إنساناً
لطيفاً .. وكانت جلسته محببة إلى نفسي .. وكان صديقي هذا
يتوق إلى رؤية المعبد بعدما حدثته عنه .

وقصدت إلى الدار .. ولم يطل بي البحث عنها هذه المرة
وسرعان ما وقفت وصاحبي أمام الباب الحديدي أدق الجرس .
ولم يجبني الصوت من البدروم هذه المرة ، فقد كان معتماً
لا يبدو به بصيص ضوء ، بل أجابني صوت الفنان من إحدى
نوافذ السلاملك وهتف بي مرحباً :
- أهلاً وسهلاً .. تفضل .

وانتظرت أن يهبط من السلاملك ليقودني إلى المعبد ،
واتخذت طريقى إلى بابه ، ولكنه ناداني بصوته الجهورى :
- إطلع هنا .. إن المعبد به بعض التصليح ولا يصلح
لاستقبال الزائرين .. تفضل .

وسحبت صديقى من يده وسرنا نتلمس طريقنا وسط
الظلمة إلى باب البيت ، وقبل أن نصل إلى الباب أضىء نور
السلم وبدأ على ضوءه مدخل البيت أنيقاً نظيفاً ليس به شيء
من قفر المعبد وخرابه .

ودلفنا من الباب إلى الفناء الداخلى .. فوجدنا السلم

الرخامى يتوسطه وقد بدا نظيفاً لامعاً . . وبدأت الجدران
مطلية بالزيت ومحلاة بالنقوش . . والمدخل كله ينم عن
الروعة والفخامة والنظافة . . إلا من شيء واحد أثار دهشى
وبدا نشازاً فى المدخل الفخم . . وذهب بكل ما به من نظافة
وأناقة .

فى باطن السلم ، أو ما يسمونه « بير السلم » وجدنا كوم
من الحجارة والزلط والأتربة والردش كأنها بقايا جدار
مهديم أو آثار عمارة . . وفى وسط الكوم المترب ووراء
جدار السلم قام جذع شجرة جاف «مقلحف» ملىء بالفروع
اليابسة والبراعم المنكمشة .

ونظر إلى صاحبي وهز رأسه أسفاً وقال :

— أنظر إلى الخدم والبوابين ، ماذا كان يضيره لورفع
هذه القاذورات وألقى بهذا الحطب فى الحديقة . . بدل أن
يتركه هكذا مشوهاً مدخل البيت .

وقلت موافقاً :

— منتهى الإهمال .

وصعدنا الدرج وأنا أسف على إهمال البواب وقذارته
وإن كان أنسى يشوبه شيء من الخيرة المستترة والشك الخفى .
ولمنا صاحبي الفنان أمام باب الشقة مهاللاً مرحباً . .

وأخذنا بالحصن ، ثم قاذنا إلى داخل الشقة ، وهممت بأن
ألفت نظره إلى القاذورات التي كومها البواب في بير السلم ،
لولا ذلك الشك وتلك الخيرة اللذان كنت أشعر بهما .

أجل ! لقد كان يساورني شك . . ضعيف جداً وبعيد
الاحتمال جداً ، إلى درجة أننى لم أجرو على التصريح به ..
ولكنه مع ذلك كان يساورنى .

هذا الشك هو احتمال أن يكون هذا الكوم والخطب
موضوع عن قصد وبفعل فاعل . . وأن يكون الفاعل هو
صاحبي الفنان نفسه .

ولهذا السبب لم أجسر على إبداء أية ملحوظة عنها . .
ولا أن أصرح بأى رأى فيها خشية أن أبدو جاهلاً وأن
أسبب للفنان خيبة وفجيعة .

أى خيبة أمل كان يشعر بها صاحبي الفنان ، لو أنه قد
وضعها بقصد معين وخطة مرسومة ، وقلت له عنها إنها
قاذورات ومخلفات تركها البواب ١٢

ولذلك آثرت الصمت ، وفضلت أن أتجاوز عن كوم
الأتربة والشجرة الجافة وألا أبدى بشأنهما أى سؤال رغم
أنهما كان يشغلان حيزاً كبيراً من تفكيرى ، ورغم أنى كنت
توافقاً إلى استطلاع حقيقة أمرهما ، حتى لا أفضح نفسى ،

وأنهجل صاحبي .

وجلسنا في صلاة أثنت على الطراز العربي ، منخفضة
الآرائك .. مزركشة بالصدف ، تناثرت فيها آلات الطرب
والموسيقى .

وصفق مضيفي بيديه صائحاً :

— أم عبده .

وأتت أم عبده ، ترفل في ثوب فضفاض أسود فأمرها
بتجهيز القهوة .

ولم تسكد تختفي « أم عبده » حتى قفز من مقعده قائلاً :

— ستحضر لك أم عبده قهوة من اليمن .. بن يمني أصلي
وسأحضر لكم أنا شيئاً من زحله .. زبيب زحلاوى
على كيفكم .

وحضرت القهوة مع « أم عبده » وتوسكا ، وهى كلبة
كبيرة فى حجم أم عبده ، ثم أحضر هو الزبيب .

ولم يكد يستقر به المقام حتى قفز مرة ثانية قائلاً :

— سأحضر لكم شيئاً من اليونان .

ثم أحضر لنا بعض قطع من البطارخ .

وبدأنا السهرة .. وطال بنا الحديث .. وكوم الأتربة
والشجرة الجافة ما زالت تساور ذهنى .. وتدس بنفسها

في تفكيرى . . والسؤال عنها يتراقص على شفتى . . ويهم
بالانطلاق .

ولجأة وبلا سابق إنذار . . رأيت صديقى الفنان يميل
على ويسأل في لهجة مليئة بالفخر والكبرياء ، وهو يشير
بإبهامه إلى ناحية السلم :
— أرايتها ؟

واستطعت من منظره وإشارته وطريقة سؤاله أن
أدرك جلية الأمر بوضوح ، وأن أفهم أن تشويه منظر
المدخل بالأتربة والخطب من فعل صاحبى الفنان نفسه
وليس من إهمال البواب ، وأنها قد أصبحت بناء على ذلك
مسألة تستحق التقرير .

وأجبتة بحماس شديد وأنا أميل عليه كما مال على :
— أرايتها .

— وما رأيك ؟

— بديعة . . آية في الإبداع .

وكان صاحبى الآخر يتبع المناقشة وقد بدا عليه الدهول ،
غير دارياً ما هى هذه التى رأيتها آية في الإبداع .
وبدأ الفنان تفسيره قائلاً وهو يهز رأسه من فرط
الإعجاب :

— إنها قطعة خالدة من السير ياليزم . إنها شجرة الفناء .
الفناء اللانهائي السحيق ، أرأيت الأرضية التي في أسفلها .
إنها تمثل القفر والخراب ، وترمز إلى التراب الذي يختلط
بالرميم ، ومن وسط هذا نبت الجفاف والذبول ، قائم
كأنه العظام النخرة . إنه تابلوه رائع ، كل شيء فيه موضوع
لحكمة ولغرض ، كل فرع جاف يرمز إلى شكل من أشكال
الفناء . لو تأملت فيها ملياً لأبصرت العجب . أرأيت هذه
الزلطة الموجودة في الركن أسفل السلمة السابعة . إنها ترمز
إلى الجماجم الخاوية ، التي كانت كالزلاط . أما الحجر المقلوبة
على جانبها فهي تمثل القلوب التي كانت كالحجر . أما الشجرة
نفسها فهي تحتاج إلى دراسة طويلة . إنها ليست شجرة عادية
كما قد يبدو لك . لقد ظلت أبحث عنها مدة طويلة حتى
وجدتها أخيراً ملقاة على قارعة الطريق بعد أن اصطدمت
بها سيارة مسرعة .

وقضينا الجلسة كلها نتحدث عن شجرة الفناء . وأنى
أحمد الله الذي منّ عليّ بالستر فلم أشك له إهمال البواب
وتركه القاذورات والخطب في بئر السلم . وأخيراً نهضنا
للانصراف وهو يقول :

— إني أنوى أن أقدمها للعرض في أول معرض

للسير باليزم . . وإني أقدر لها ثمناً يزيد على الألف جنيه .
فلا أظن هناك لوحة يمكن أن تمثل الفناء كما تمثله هي .

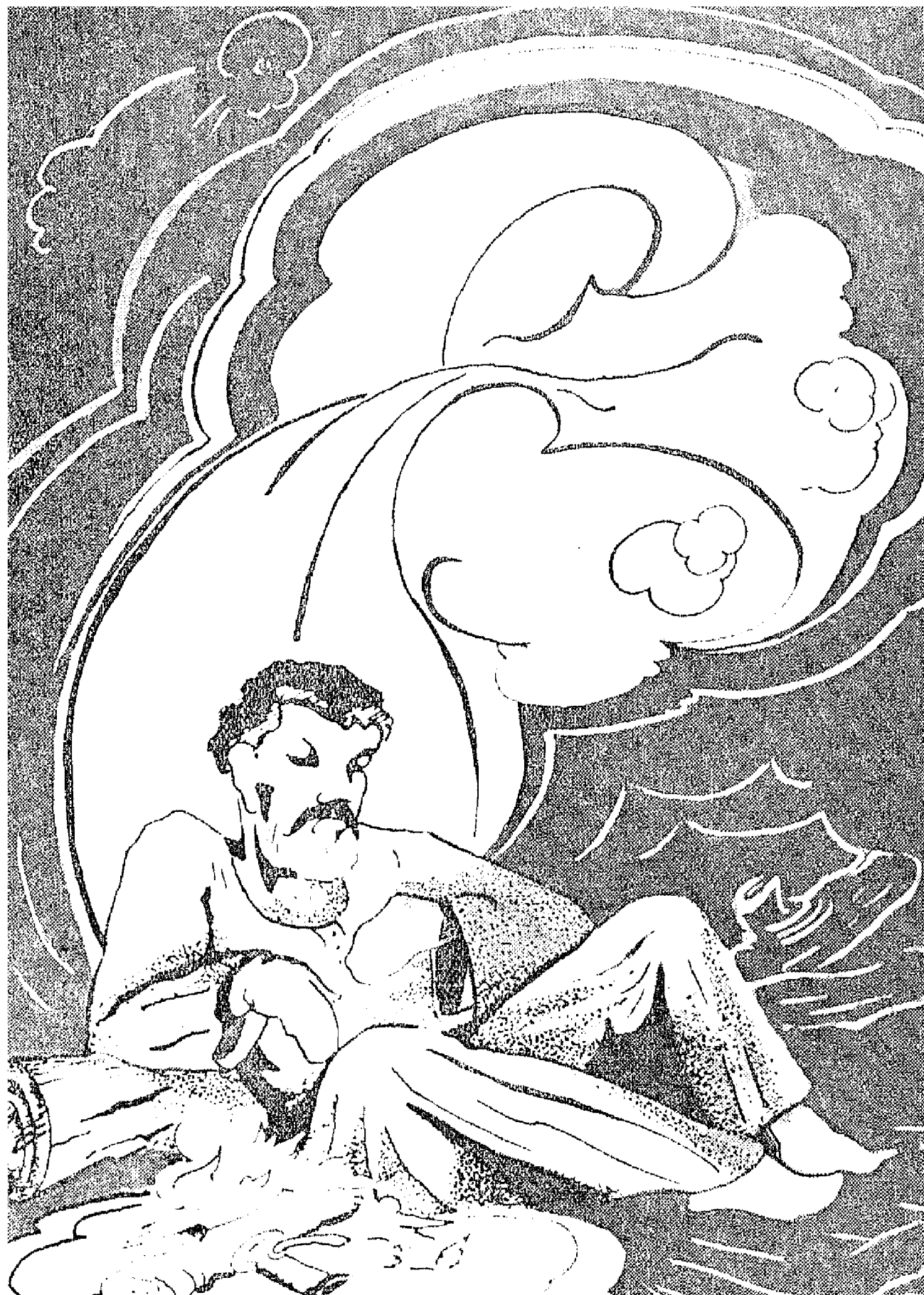
وخرجنا من الشقة وبدأنا نهبط السلم وقد وقف هو
يودعنا على بسطة السلم .

وفجأة رأيت يفرغ فمه ويحملك بعينه في بئر السلم ويبدو
عليه فزع شديد .

وذملت ، ولم أملك إلا أن أنظر إلى حيث أخذ يحلق
بعينه ، أعني في بئر السلم حيث وضعت شجرة الفناء . فإذا بي
أرى المسكان نظيفاً أنيقاً لا أثر فيه للأتربة ولا للحطب الجاف ،
وإذا بمدخل الدار قد عاد إليه رونقه وزالت عنه الغمة .
ولكن صاحبي لم يكن يرى هذا الرأي ، بل كان يعتبر
المسألة فاجعة وصاح بأعلى صوت :

— الشجرة ، أين الشجرة ؟ لقد سطوا عليها اللصوص ،
يا عم علي ، يا عم علي .

وهبطنا نحن الثلاثة بسرعة نبحث عن عم علي البواب ،
فإذا بنا نجده قد افترش الأرض على باب حجراته ، ووضع
أمامه منقداً مشتعلًا وأخذ يلقى فيه بين آونة وأخرى بقطعة
من الحطب ، وعلى مقربة منه كانت تجثم أشلاء الشجرة وقد
حطمها الرجل ليتدفأ بحطبها .



وهجم صاحبي على « عم علي » يمسك برقبتة ويصيح :

— أيها الجاهل الأحمق ماذا فعلت بشجرة الفناء ؟

— شجرة إليه ؟

— الفناء . . . الفناء .

ووجدت البواب يوشك أن يختنق تحت ضغط يد
الفنان ، فأسرعت أنخلص البواب منه خشية أن يرتكب
جريمة قتل ، وقلت له :

— يا أستاذ لا داعي لكل هذه الثورة ، إن « عم علي »
كان يقصد معاونتك .

— معاونتى أنا . كيف ؟

— ألم تكن هذه شجرة الفناء ؟

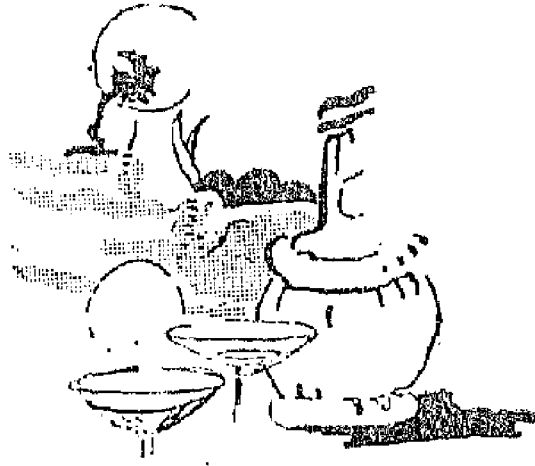
وأشرت إلى كوم الخطب المجهز للوقود . وأجاب الفنان :

— أجل ، لقد كانت كذلك .

— فعلام الغضب إذآ ، لقد جعلها عم علي ، منتهى الفناء .
لقد أضحت فناء الفناء .

ونظر صاحبي إلى النيران وإلى كوم الخطب ثم هز رأسه
موافقاً وأجاب :

— معك حق ، هيا بنا ، برافو « عم علي » ، أنت شيخ
السريالين .



ومرت بضعة أيام ونحن في حيرة لا ندري
كيف رضيت أن تتنازل عن قنيتها بمثل
هذه البساطة حتى كان ذات يوم ، وضع
لنا الأمر ، وعلينا أنها لم تترك زوجها
العاشر الا بعد أن حصلت على « الزوج
الحادي عشر » ..

الزوجة الحادية عشر

شاطئ البحر . . في صيف العام الماضي . . .
على أبصرت « ابتسام » ، ولا شك أن الإسم قد وقع
لدى القارىء موقعا حسنا . . وأنه يتوقع بعد ذلك أن
أصف له هيفاء من فائنات الصيف . . بما يوه من قطعتين ،
برز منها الصدر ، والتف الخصر ، واستقام الساقان .
لا ياسيدى . . آسف كثيرا ، وما ذنبى وهى ليست
كذلك ، ولاربعة ذلك .

أقول إنى رأيتها على الشاطئ . . لا تتهادى ، ولا تتمايل
بل تسير كالهجين . . تدفع بجسدها الضخم المترهل إلى الأمام
وإلى الخلف وتذب بقدميها على الأرض دبا وقد أمسكت
حقيبتها بيدها . . حقيبة جلدية من الحقائق التى يحمل الطلبة
فيها كتبهم ولسكنها ضخمة بحيث تسع لها تحمله من البضائع .
البضائع ؟

أجل . . الحلقان والأساور والروائح والخواتم التى
تبيعها ببضعة قروش لأصحاب الكبائن ، فتكتسب منها
رزقها .

لا ترع ياسيدى القارىء . . فلقد روعت من قبلك . .
عندما سمعت اسمها ثم رأيتها . . بشكلها ومشيتها وحقيبتها .

رأيتها سمراء صفراء كالحة باهتة (واخشيتاه من أن
تقرأ القصة) مجمدة الوجه ، واسعة الفم ، مخيفة النظرات ،
ذات صوت عال مخشوشن ، ولهجة آمرة غير مستجدية .
دخلت علينا الكابينة ذات مرة . . أو قل هجمت ،
ورأيت الأهل يعاملونها برفق ورقة وأدب وابتاعوا منها
أشياء لم يكونوا قط في حاجة إليها . . فلما انصرفت سألتهم
لم يشتروا منها ما اشتروا ولم عاملوها بمثل ما عاملوها به . .
فأجابوا أنهم يخشونها لأنها طويلة اللسان ، وأنها لا تتورع
عن شتيمة من يرفض الشراء منها فإن بها لومة ! ومن ذلك
اليوم وأنا أخافها وأخشى الاقتراب منها ، وتحدثوا عنها
فقالوا إنها امرأة ذات ماض عجيب ، فقد تزوجت ما يقرب
من العشرين رجلا كان منهم قبطان سفينة وكابتن انجليزى
سافرت معه إلى انجلترا ! !

وزارتنا المرأة مرة ثانية . . أو أغارت علينا . .
وانسجمت معنا بعض الشيء ، فجلست تقص علينا طرفاً من
مغامراتها وزيجاتها . . ثم أنبأتنا في النهاية أنها مخطوبة .
وكتمت الضحك في صدرى خشية أن ينالنى منها شر
ولم أشك في أنها مجنونة وأن كل ما تصفه لا يعدو حديث
خرافة . . حتى سمعت بعد ذلك طرفاً من تاريخها . .

من صاحب لا أرتاب في صدقه ، فلم أشك بعد ذلك في أن المرأة لم تكن كاذبة في شيء مما قصته .

كنت أجلس وصاحبي في أصيل يوم من أيام الصيف أمام حوض السباحة بنادي هليوبوليس ، ولست أدري كيف ساقنا الحديث إلى ذكر صاحب لنا فأخذنا نتندر بفراط هذوئه وبأنه ليس هناك ما يمكن أن يستثيره أو يحرك ساكنه .

وصاحبنا هذا يدعى « أحمد افندى » . . وهو رجل في منتصف العمر . . مقبول الشكل ، ممتلئ الجسم ، أصابع الرأس ، ولست أظن هناك فائدة في كل ما ذكرت من الأوصاف فهي لا يمكن أن تكون مميزة لشخص بذاته وتكاد تنطبق على نصف سكان مصر وكل موظفي الدواوين . أما الشيء الذي قد يمكن أن يكون من مميزاته فهو ذلك الهدوء والسكون والطيبة والقناعة .

ورأيت صاحبي قد ضحك فجأة فسألته عما يضحكه فأجاب بأنه قد تذكر واقعة عجيبة وقعت لصاحبنا منذ عشرات السنين . . واقعة لو لم يشاهد وقوعها بعيني رأسه ، ولو لم يطلع على حوادثها من أولها إلى آخرها . . لقال عنها فرية وأكذوبة .

وبدا صاحبي يقص عليّ الواقعة . . قال :

— كنا نعمل معاً في مكتب البريد العام ، وكنا نجلس متجاورين كل خلف نافذته التي يستعرض من خلالها مختلف الوجوه التي تفد علينا طيلة اليوم ، وفي ذات صباح لمحت من نافذتي غادة مقبلة . . غادة في جسدها الممتلئ وصدرها البارز إغراء ، وفي تقاطيع وجهها وسواد عينيها سحر وفتنة ، وتناولت ببصري كما تناول غيري من الموظفين الذين لمحوها من خلال نوافذهم وكأننا لم نبصر من قبل امرأة جميلة . . إلا واحداً لم يحرك ساكناً ولم يكلف نفسه حتى مشقة رفع بصره ، وكان هو « أحمد افندي » . ووقفت الغادة أمام « أحمد افندي » تحييه بابتسامة تذيب الحديد ! ونظر هو إليها ببروده وجموده وسألها عما تطلب .

ولاتسل عن الحسد الذي أحسنا به نحو أحمد افندي عندما سمعنا الغادة تسأله برقة هل هو أحمد افندي ، وعندما تبينا أنها تقصده شخصياً ، وأن وقوفها أمامه لم يكن وليد صدقة . . .

وطال الحديث بينها وبينه . حديث ناعم رقيق . تتخلله البسمات والضحكات ، وأخيراً انصرفت مودعة ، وأقبلت على صاحبنا أسأله من تكون الفتاة وما قصتها ، فتبين لي

أنها التقت بأبيه في بلده وتوثقت بينهما عرى الصداقة وأنه
أنبأها أن ابنه يعمل في البريد وأعطاهما عنوانه فلم تكذب
تصل إلى القاهرة حتى أتت لزيارته .

وأقول لك الحق أنني رأيت الفتاة « لقطه »
و (استخسرتها فيه) ، ولكن ماذا كنت أستطيع أن
أفعل مادام « يعطى الخلق لى بلا ودان » وباليته بلا أذن
فقط . . بل بزوجته ، وثلاثة أولاد ، وهو فوق ذلك زوج
مخلص وفيّ .

ومرت الأيام ، وهي تتردد عليه من يوم لآخر . .
لا تكاد تحل بالمكتب حتى يتضوع عبيرها في أنوفنا . .
وترن ضحكاتها في آذاننا ، وتسرى منها رائحة طيبة تملؤنا
طرباً وجوراً ، وأخذت معاملة أحمد افندى لها تتطور
مع الأيام . . فتبدل جموده رقة ، وخشونته ليناً ، وذهب
عنه ذلك البرود والركود . . فهش وبش ، وتلطف
وتظرف ، وأخذ إقباله عليها يزيد المرة بعد المرة . . بل
لقد خيل إلى أن الرجل بدأ يتعلق بها فينتظر مجيئها في كل
يوم بشوق ولهفة .

أقول إن هذا هو ما خيل إلى . . حتى حدث ذات
يوم حادث ملأنى دهشة . . حادث حاولت أن أجده له
تفسيراً وتعليلاً ولكن عبثاً .

كنّا جالسين في المكتب ذات مرة وقد انهمكنا في العمل
وجلس بجوارى أحمد افندى يبادلنى من آن لآخر كلمة
أو سؤالاً ، وقد بدا في أتم هدوئه ورزاقته وعقله ، وقوراً
حكيماً . . لا يتوقع منه المرء هزلاً ولا مجوناً ، ولا عبثاً ،
ولا مزاحاً . .

ترى ماذا تقول في هذا الوقور الحكيم . . عندما تراه
قد هبط فجأة عن كرسيه فاختنى أسفلته وقبع فيه كهر يموه
أو طفل يحبو ؟
هل جن ؟ ! أو يأتى الجنون هكذا فجأة دون مقدمات
أو مبررات ؟

لقد نظر إلى الرجل من أسفل المقعد وقد بدا على
وجهه ذعر شديد وسمعته يهمس :
— قل لها إننى غير موجود .

أقول لمن ؟ . ماذا أصاب المسكين وماذا دهاه ؟
لقد أصابتنى دهشة شديدة جعلتنى في حالة عجز عن
التفكير . . فقد حدث ما حدث في مثل لمح البصر . .
ولم أكد أرفع عيني عن الرجل القابع عند قدمي ، حتى
أبصرت الحسناء تقف أمامي في النافذة تمنحنى ابتسامة من
ابتساماتها العذبة وتسالني في صوت رقيق :
— أحمد افندى موجود ؟

فأجبتها بسرعة دون تفكير :

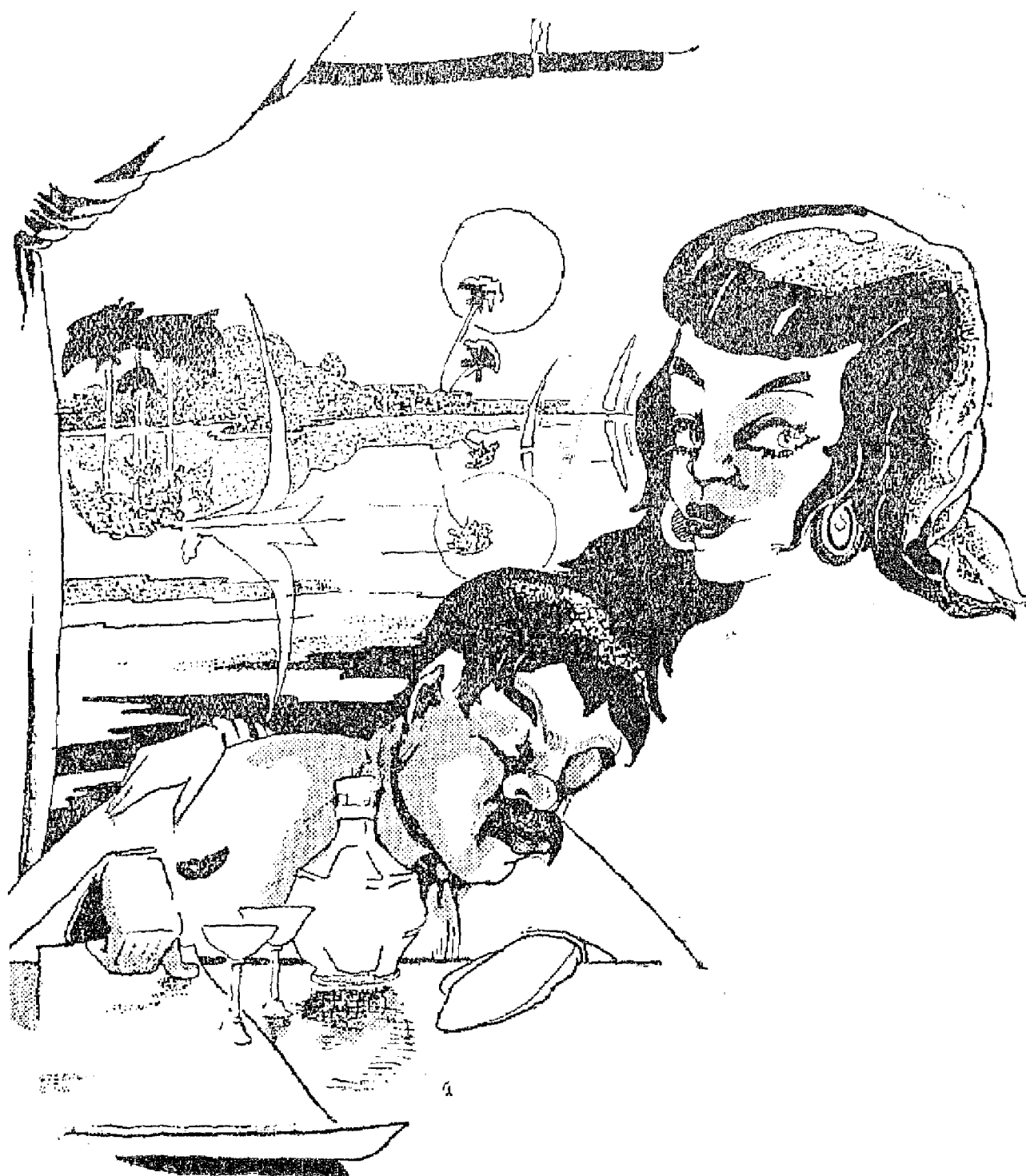
— لا يافندم . . غير موجود ؟

وحيتني بابتسامة أخرى وأعطتني ظهرها وانصرفت :
ونظرت إلى الرجل المنكمش أسفل المقعد فوجدته ينظر
إلىّ ويهز رأسه متسائلاً ، فأجبتة :

— لقد انصرفت .

وتنفس أحمد الصعداء وخرج من مكمنه وانطرح على
كرسيه وقد تصيب العرق من جبينه وحاولت أن أستوضحه
الأمر وأعرف منه سر ذلك الجزع والفرع من رؤية
الحسناء وسبب تهربه منها كأنه مجرم تطارده الشرطة ،
ولكنه تذرع بالصمت وطلب إلىّ أن أنبئها في كل مرة
تحضر للسؤال عنه بأنه غير موجود .

ومرت الأيام والغادة لا تنقطع عن المجيء إلى المكتب
والسؤال عنه ، ولا يكاد يحس هو طرقات أقدامها حتى يبدو
عليه كأنما سمع إنذاراً بالخطر فيهبط إلى مخبئه في لمح البصر
حتى إعلان الأمان فيظهر على وجه الأرض ، واستمر الحال
على هذا المنوال حتى وقفت الغادة أمامي ذات يوم تسألني
عنه كالمعتاد . . فأجبتها بنفس الجواب الذي عودتها عليه
« غير موجود » ، ولكنها في هذه المرة لم تجب بابتسامتها



المعهودة ، ولم تنصرف ، بل هزت رأسها ببطء وقلبت
شفيتها بازدياء وقالت في صوت هادئ :

— أنا أعلم إنه موجود . . قل له لافائدة من الهرب ،
سأعثر عليه إن عاجلاً أو آجلاً .

— هرب ؟ ولم يهرب ؟ وماذا تريد ؟

— ماذا أريد منه ؟ . . إني زوجته !

إن إجابة المرأة كانت آخر ما كنت أنتظر ، ونظرت
إليها مشدوهاً وقلت في ذهول :

— زوجته . . أنت ؟ . . ولكنه متزوج وله ثلاثة

أولاد . . .

ونظرت إلى المرأة نظرتها إلى إبله ، وهزت كتفها
باستخفاف ، ثم أخرجت من حقيبتها ورقة لوحات لي بها
وقالت : هذه ورقة الزواج وعندى ورقة أخرى تنازل
لي فيها عن أطيانه . . أرجوك قل له لافائدة . . قل له يكف
عن « الزواجان » ويظهر بالتى هى أحسن ، وإلا . . .

ودون أن تنتظر منى رداً أولتى ظهرها وانصرفت .

وخرج أحمد أفندى من مخبئه كأنه فأر غريق وسأله :

— أتزوجتها حقيقة ؟

وهز رأسه بالإيجاب .

— وكتبت لها الأ طيان ؟

وهز رأسه بالإيجاب أيضاً .

أنبأني باختصار أنه ذهب إليها في « العروسة » ذات ليلة
وأنها أسكرته وعقدت زواجهما واستسكتبته تنازلاً عن كل
ما يملك . . .

وتملكني العطف عليه والرثاء له . . فإلقد كانت ورطته
ليست مما يسهل الخروج منها ، وخاصة أن المرأة ليست لينة
العريكة ، فقد علم أنها تزوجت من قبل تسع مرات ، وكان
من أزواجها قبطان سفينة وكابتن انجليزى .
وهنا صحت :

— قبطان سفينة وكابتن انجليزى ؟ ما اسمها ؟

— ابنتسام ؟

— ابنتسام ؟ لا يمكن . . ! إنها تكون حقاً قد تزوجت
هؤلاء ولسكنها قطعاً لم تكن حسناء ولا غادة ولا شيئاً من
هذا الذى تقوله .

— هل تعرفها ؟

— رأيتها فى الصيف الماضى شوهاً شنعاء . ليست بها
مسحة من ذلك الجمال الذى تتحدث عنه ، ولكن أتم
حديثك . . فلا شك أن الزمن والأزواج العشرة قد فعلوا
بها ما فعلوا .

وأخذ صاحبي يتم حديثه قال :

— قلت لك أني أحسست نحو صاحبي بعطف شديد
وأخذت أفكر وإياه في الوسيلة التي نستطيع بها أن ننقذه
من ورطته ، وتطوعت أنا لمساومة المرأة للتنازل عن
حقوقها .

وفي اليوم التالي حضرت كعادتها ولم يهبط أحمد أفندي
بل جلس ليواجهها ، وسألها عما تريد ثمناً للطلاق وللورقة
التي معها فأنبأني بإصرار أنها لا تريد الطلاق .

ولم تجد مع المرأة طرق اللين والسياسة ، فقد كان أحمد
أفندي في نظرها «لقطة» ثمينة ، وأخيراً نفذ صبري فصعدت
بها أن تذهب إلى حيث ألفت .

ورممتني بنظرة طويلة ملؤها التهديد والسخرية ، ثم هزت
رأسها ببطء وانصرفت .

وظللت أرقب المرأة وهي تسير إلى الخارج وأنا موجس
من نظرتها خيفة . ولم تمض لحظة حتى أبصرتها تتجه يمنة ثم
ترقى السلم صاعدة إلى مكتب المدير .

وأحسست بقلبي يهبط بين جوانحي . . فقد كنا لانخشى
أحداً في ذلك الوقت كما نخشى المدير . إذ كان رجلاً جاداً ،
قاسياً ، وكرهت أن يكون هو أول من يعرف بالفضيحة

ولم أشك في أنه سيتخذ مع أحمد افندى إجراء حاسماً رادعاً .
ولم تمض لحظة حتى أقبل حاجبه يطلب أحمد افندى
فصعد معه ، أصفر الوجه ، مرتعد الأوصال ، وبعد هنيهة أقبل
مرة أخرى يطلبني .. ودخلت لمقابلة المدير وعلمت منه أن
أحمد افندى أنكر كل علاقة له بالمرأة ، وسألني عما أعرفه ،
ولم أستحسن . أنا فكرة الإنكار فرويت له الحقيقة ،
وقلت له إنها زلة شباب وإننا نأمل أن يتصرف في المسألة
بعطفه الأبوى .

وانصرفنا من أمام المدير تاركين المرأة عنده ، وقد
ملأنا الخوف والقلق .

وفي اليوم التالي حضرت المرأة ، وأقبلت علينا كأنها
غمة أو سحابة ، ووقفت أمامنا برهة تحديق فينا بنظراتها ثم
حدثت المعجزة .

لقد مدت يدها إلى أحمد افندى بالورقة التي تنازل لها
فيها عن أملاكه ، وطلبت منه الطلاق .. بلا قيد ولا شرط .
لم تصدق أعيننا بادئ الأمر ، وظننا المرأة تمزح ،
ولكنها كانت جادة في قولها .

أية معجزة تلك التي استطاع المدير صنعها .. كيف

امتناع أن يؤثر عليها . . بالضرب . . بالتهديد . . باللين . .
بالسياسة . . من يدري ؟ !

ومرت بضعة أيام ونحن في حيرة لا ندري كيف رضىت
أن تنازل عن قنصلتها أحمد افندى بمثل هذه البساطة ، حتى
كان ذات يوم ، وضح لنا الأمر ، وعلينا ببساطة أنها
لم تترك زوجها العاشر أحمد افندى إلا بعد أن حصلت على
« الزوج الحادى عشر » . أتدري من كان ؟ ! . لقد كان
المدير نفسه بجده وقسوته وصرامته .

كيف أوقعته ؟

كيف حدث ما حدث ؟ ؟

الله وحده أعلم !





وبدأت المجوز قصتها بصوتها الناعم
الرفيق ، فبدأ الجمع الذي كان يطن كإنه
خلية النحل . وبدأ الصبية وقد أسندوا
ذقونهم الى أكتفهم الصغيرة .

حديثة جدية ..

يوم الخميس من أحب الأيام إلى نفسه . . فقد
كان هو اليوم الذي يشعر فيه أنه حر طليق يرتع
كما يشاء . . بل وكان يتمنى في قرارة نفسه لو أضى الأسبوع
كاه أيام خميس ، فلا يجد نفسه مقيداً إلى مكتبه طول أيام
الأسبوع يحل مسائل الحساب ويكتب واجبات الانجليزي
كأنه سجين حكم عليه بالاستذكار المؤبد !

وكان يوم الخميس متعاً حتى في حصصه . . فقد كانت
الحصتان الأولتان « إنشاء » والثانيتان « رسم » ، ولم يكن
هناك أحب إلى نفسه من الإنشاء العربي والرسم . . فقد كان
بارعاً في كليهما ، وكان مدرسا العربي والرسم حبيبين إلى
نفسه ، إذ كان أولهما طيب الخلق كريم النفس ، وكان
ثانيهما سميئاً أبيض اللون خفيف الدم . . فكان الصبي يجد
في درسيهما متعة وسروراً .

وكان الجرس لا يكاد يدق مؤذناً بانتهاء الحصّة الرابعة ،
حتى يسرع الصبي إلى بيته ، فيقذف بكتبه . . ثم ينطلق إلى
بيت « جده » .

وكان بيت « الجد » هذا هو أحب أماكن النزهة إلى
نفسه ، فقد كان به كل ما يرغبه الصبي ، وكان أهم ما يمتساز به

بيت جده عن بيت أبيه ، هو الحرية ! .. الحرية المطلقة
التي لا يحدها قيد ولا شرط .

كان الصبي يجد نفسه مطلق الصراح .. يلعب كما يشاء ..
ويأكل ما يشاء ، ووقتاً شاء .. كان يستطيع أن يدخل كل
حجرات البيت دون أن يمنعه أحد خشية توسيخ الحجرات
(أغلب الظن أن ذلك يرجع إلى أنه لم يكن من المستطاع
توسيخها أكثر مما كانت) .. وكان يستطيع « الشقلبة » كما شاء
دون أن يتهمة أحد « بالشقاوة » و « العفرتة » .. كان يشعر
أن بيت جده مليء بالحركة والحياة من كثرة ما به من الصبية
الأقرباء من أولاد العم وأولاد العمة الذين كانوا يلتقون
كل خميس في بيت الجد أو « البيت الكبير » .. والواقع أن
الصبية كانوا يجدون من روح الفوضى التي تسود البيت
مرتعاً خصباً لمرحهم ولهوهم .

وأخيراً .. وهو أهم ما في الأمر .. كان الصبي يجد في
البيت جدته العجوز التي كانت تخصه بالعطف دون سائر
الأولاد ، والتي كانت تقص عليه أحسن القصص .

كانت الجدة بارعة في فن القصص .. براعتها في كل
شؤون الحياة عندما كانت تستطيع السير والحركة .. وقبل
أن يصيبها ذلك الشلل الذي تركها راقدة طريحة الفراش ..

لا تستطيع النهوض . . ولا تقدر أن تقف على ساقها .
كانت الجدّة امرأة عجبية ، ولم تكن عجوزاً ككل العجائز
فقد كان كل ما فيها محبباً إلى النفس مقرباً إلى القلب ، كانت
متحدثة بلا ثرثرة . . طيبة القلب بلا حقد ولا بله . . سديدة
الرأى بلا مكر ولا دهاء . . معتددة بنفسها بلا غرور
ولا كبرياء .

وما زالت صورتها منطبعة في رأس الصبي . . بجسدها
الطويل النحيل الممدد على الفراش ، وقد بدا وجهها هادئاً
ساكناً ، تعلوه صفرة وشحوب ، وشعرها الفضي قد أخفى
بمندبل أبيض ، ويداهما النحيلتان المعرورتان ، قد امتدتا
فوق الغطاء .

وكان صوتها يعلو هادئاً ناعماً . . وقد التف حولها
الصبيّة يلحون عليها أن « تحكى حديثه » . . وتبدأ قصتها
فاذا بالسكون يسودهم وكان على رؤوسهم الطير . . .
ويشرّبون بأعناقهم إليها ويثبتون أبصارهم في وجهها وهي
تقص قصتها ، ويستمرّون هكذا في سكوتهم ساعات طوالاً
وهم الذين لا يستقر لهم قرار ولا تهدأ لهم ساكنة حتى تنتهي
القصة فيتمطون ويتشاءون ويذهبون للعشاء والنوم
ورؤوسهم ملأى بالقصة وحوادثها .

وكان بين الجمع صبية نحيفة رقيقة . . خضراء العينين
دهبية الشعر ، وكانت الصبية غريبة الأطوار شاذة الخلق .
إذ كانت مرهفة الحس فياضة الشعور ، وكانت حادة المزاج
سريعة التأثر ، وكانت من فرط إحساسها يخيل إلى الناس
أنها مريضة أو مجنونة ، ولم تكن أحوالها تبدو طبيعية
لطفلة في مثل سنها .

وكانت الصبية تبكى لكل من يتألم إنساناً كان أو حيواناً
وكان يصيبها التشنج عندما ترى الأطفال يلهون بضرب قطعة
أو صيد عمصفور ، ولم تكن تطيق أن ترى أحداً يقتل
أمامها حشرة مهما كانت ضآلتها وحقارتها ، وكان أكثر
ما يبكيها أن ترى الخدم يضربون أو ينهرون .

وفي ذات يوم من أيام الخميس الحبيبة إلى قلب الصبي ،
انطلق كعادته إلى بيت جده . . فوجد الجميع في انتظاره ،
وبدأوا في لعبهم ومرحهم حتى أصابهم الكلال ونال منهم
التعب . . فتسللوا إلى الدار النسيجة قبيل الغسق واتهموا
بعض الأطعمة من المطبخ ، ثم التقوا مرة أخرى في حجرة
الجددة التي استقبلتهم فرحة باسمة ، والتفوا حول فراشها
يطلبون منها كعادتهم أن تقص عليهم إحدى قصصها .
ولم تكن الصبية الرفيعة الجسم ، الخضراء العينين ،

تشاركهم ألعابهم العنيفة الصاخبة ، ولكنها كانت أسرهم
إلى الجلوس حول فراش العجوز ، وأشدّهم إنساناً
وأكثرهم لطفة وتشوقاً .

وبدأت العجوز قصتها في صوتها الناعم الرقيق فهذا
الجمع الذي كان يطن كأنه خلية النحل ، وبدأ الصبية وقد
أسندوا ذقونهم إلى أكفهم الصغيرة .
قالت العجوز :

— في غابر الزمان ، وسالف العصر والأوان . . كان
يحكم الدنيا ملكان من ملوك الإنس أحدهما ملك
المشرق والآخر ملك المغرب ، وكان الملكان العظيمان
يتنازعان السلطان ، ولم تكن الحرب بينهما ليخمد لها
أوار أو تنطفئ لها جذوة حتى ملأت الرعية كثرة الصراع
والقتال فأشار أحد الحكماء على ملك المشرق أن خير وسيلة
لتوطيد أركان السلام ، وإبعاد شبح الحرب أن يزوج ابنه
من ابنة ملك المغرب فيسود بذلك الوئام ويستتب الأمن
وتحل الصداقة والحب بين الملكين محل البغض والكراهية
وتتصافي النفوس وتصبح الأمتان أمة واحدة . . لا تعصف
بها الحروب ، ولا يقض مضاجعها الخوف والفرع .
وكان ملك المشرق قد ملّ طول القتال وشعر بالحاجة

إلى أن يقضى البقية الباقية من العمر في هدوء وسلام . .
فاستصوب رأى الحكيم . . ورحب به ، وسرعان ما أرسل
الرسول إلى خصمه يطلبون يد ابنته ويعرضون عليه الصداقة
الخالصة والود الصادق ، ويؤكدون رغبتهم في الوثام
والسلام .

ولكن ملك المغرب ردهم في عنف وصدى في غير لين
ولا رفيق ، ولم يتورع أن يبدى لهم ازدراء واحتقاره ،
وطردهم شر طردة ، وعاد الرسول يجرّون أذيال الخيبة
والفشل وقد ثارت ثائرتهم وغلا مرّجل الغضب في نفوسهم
فأفضوا إلى مليكهم بما كان من أمر خصمه ، وكيف أمعن
في إهانتهم والسخرية بهم .

وشعر ملك المشرق أنه قد أهين إهانة لا يغسلها إلا الدماء
وندم على ما فرط منه من لين نحو خصمه . . وأقسم أن
يجعل من ابنته سبية من السبايا ، وأن يحطم جيشه ويمزقه
إرباً إرباً ، وأن يعذبه عذاباً لم يعذبه أحد .

وحشد الملك قواته ، وسير إلى خصمه جيشاً لم يسمع
الناس بمثل ضخامته ولا قوته ووضع على رأسه ابنه الذي
كان يملأ الحقد قلبه ، إذ كان يشعر أن اللطمة قد وجهت له
دون سواه ، وكان يتحرق شوقاً للثأر لكرامته المهدورة ،

والانتقام من احتقره وازدراه .

واندفع الأمير بحيشه كأنه العاصفة لا تبقى ولا تذر ،
وكان ملك المغرب قد بدأ يستعد للقاء خصمه . . فقد كان
يعلم أنه لن يسكت على ما لحقه من إهانة ، ولكنه لم يتوقع
أن يكيل له الضربة بمثل هذه السرعة ، ولا في مثل هذه
القوة . . .

وهم الجيش الغازي ، فصب على رؤوسهم الحمم فزق
شملهم وفرقهم أيدي سبا . . وفر الملك ووقعت ابنته أسيرة
في يدي الأمير .

وسيقت الأميرة ذليلة مطأطئة الرأس وقد رأت بعينها
ما حل بأهلها من نوازل وكوارث ، وما ارتكبه الأمير من
تذليل وتعذيب . . فأفعم قلبها بالحقد عليه والازدراه له .
ورأى الأمير أن الأميرة تستحق ماسفك لأجلها من
دماء ، وما بذل في سبيلها من أرواح . . فقد كانت رائعة
الحسن فاتنة ساحرة . . حتى أحس الأمير أن الأسيرة على
وشك أن تصبح آسرة ، وأن السبية الذليلة قد استحوذت
على نفسه فأضحت في قلبه ناهية آمرة !!

وعصف الهوى بقلب الأمير ، وحاول أن يستميل
الأميرة إليه ، ولكن قلبها كان مليئاً بكراهيته ، وحاول

استرضاءها برفعها من مصاف السبايا وأعلن زواجه منها .
ولكنها استمرت على بغضه وازدرائه .

وشعر الأمير أن حياته قد باتت مقفرة مظلمة ، فقد
كان محروماً من حب الفتاة التي جن بحبها .

ومرت الأيام ، وكان ملك المغرب قد أخذ يستعيد
قواه ويعد العدة للثأر لنفسه ، حتى كان ذات يوم أتم فيه
استعداداته ووجه جيشاً هائلاً للهجوم على خصمه .

وأحس ملك المشرق بالخطر يدنو منه فأخذ في تحصين
مدينته . فلم يكده يصل الجيش الهاجم حتى كانت المدينة
أمنع من العقاب .

واضطرب المهاجمون أن يضربوا الحصار على المدينة وأن
يضيقوا الخناق عليها ، ولكن المدينة استمرت في مقاومتها
الباسلة دون أن ينال منها العدو شيئاً . وكانت الأميرة تتلف
على نجاح أبيها في هجومه ليخلصها من أسرها وينكل بالأمير
وقومه كما نكلوا به من قبل ، وبدأ اليأس يدب في قلبها
عندما رأت أباه يفشل في اقتحام المدينة ، وصممت على
أن تغرر بالأمير فتحصل منه على ما لديه من أسرار تساعد
أباه في هجومه .

وشعر الأمير أن الأميرة قد بدأت تتلطف به وتلين له

وأحس أن بغضها قد أضنى حياً ، فتملكه السرور وملأت
السعادة قلبه . . واستدرجته الأميرة . . فوثق بها ولم يتوان
عن أن يفضى إليها بكل ما عنده .

وفي جنح الظلام تسالت الأميرة من القصر ، وهربت
في زى أحد الجنود وذهبت إلى معسكر أبيها فباحث له
بأسرار الأمير ، ولم يمض يومان على اختفائها من القصر
حتى كانت المدينة قد سقطت وحصدتها العدو حصداً .

وأسر الأمير واقتادوه ذليلاً كما اقتاد الأميرة من قبل ،
وسجنوه في قبو مظلم رطب يقضى به بقية حياته .

ولم يكن يحزن الأمير في كل ما حدث له إلا خيانة
الأميرة . . فقد كان حبها مازال عالقاً في فؤاده ، وكان
يمزق قلبه أن ما أظهرته له من حب لم يكن إلا لخديعته
والإيقاع به .

ورأت الأميرة ما فعله أبوها وجيشه بقوم الأمير . .
فأرت أن الأمير كان أكثر رحمة وأكرم قلباً . . فقد انتفض
قومها على أعدائهم فلم يتركوهم إلا عظاماً نخرة وحطاماً بالية ،
وأحرقوا الحرث والنسل ، وذبحوا النساء والأطفال .

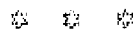
وأحست الأميرة بالندم يخزها على خيانتها للأمير . .
وشعرت أنه لم يرتكب ما ارتكب إلا من أجلها ، وأنه

كان كريماً معها ، وبدأ حبه يتسلل إلى قلبها يوماً بعد يوم .
حتى شعرت أخيراً أنه قد ملأ قلبها وملك عليها حواسها .
وتنكرت الأميرة في زى خادمة وحملت معها إناء به
خمر وتسللت إليه تبغى زيارته في قبوه وأخبرت الحارس
أن سيدتها الأميرة قد أرسلتها لتعطي الإناء للأمير السجين .
وذهل الأمير حين وجدها أمامه ، ولكنها أسرت إليه
بندمها واعترفت له بحبها . . فكاد يجن من الفرح ، وأحس
أنه خير له مائة مرة أن يعيش معها سجيناً في القبو من أن
يعيش بدونها طليقاً في قصره وملكته ، وشغلهما الهوى
برهة . . ثم أفاقا على صوت أقدام الحارس تقترب . .
فانهمكت في ملء الكأس للأمير . . وأعطتها له فجرعها
في لطفة ، وخيل للأمير أن طعم الشراب كان غريباً ، وتوهم
حرارة في جوفه . . فظن بالشراب سماً ، وبدأ الوهم يتملكه
فخشى أن تكون الأميرة قد جاءت لتخدعه مرة أخرى ،
وزاد الوهم في نفسه فجن جنونه ، ورأت الأميرة عيناه
تجحظ وأسنانه تصر ثم قفز فجأة وأمسك بعنقها في قبضة يده
وصاح بها :

— لم تصرين على تعذيبى وقتلى . . أنا الذى أحبتك
حباً لم يحبه إنسان من قبل . . أنا لا أخشى الموت ، ولكنى

يفجعنى أن أموت بيدك ، وأنا لا أرغب فى الانتقام منك ،
ولكنى لا أرغب فى الذهاب إلى الحياة الأخرى بدونك !
وحاولت الأميرة أن تتكلم وأن تقسم له أنها تحبه
حقيقة وأنها لاتخذه فى هذه المرة ، وأن الشراب الذى
أعطته إياه ليس به أثر للسم ، ولكن الأمير طعنها بسيفه
طعنة نجلاء حتى يتمكن من قتلها قبل أن يسرى السم فى جسده
فتتركه لاحتراك به .

وارتمت الأميرة جثة هامدة ، واحتضنها الأمير وقد
مزق الألم قلبه ، وأغمض عينيه ، وأخذ ينتظر أن يمزق السم
أحشائه وأن تفيض روحه فيلحق بمعشوقته .
ومر الوقت بطيئاً ، والأمير يحس أنه مازال حياً ،
وأخيراً بدأت الغيوم تنقشع عن ذهنه فأدرك أن الأميرة
لم تخذه ولم تدس له السم ، وأنه قتلها ظلماً وعدواناً .
ولم يطق الأمير الحياة لحظة واحدة فثبت سيفه على
الأرض ثم رمى ب صدره عليه فنفذ فى قلبه وفاضت روحه .



ودخلت الخادمة تعلن أن العشاء قد جهز . . فأفاق
الصبية من ذهولهم ، وختمت الجدة قصتها قائلة « توته . توته
فرغت الحدودته » .

وقفز الصبية من أماكنهم ، وانقلب السكون ضجيجاً
وصخباً واندفعوا يتسابقون إلى الطعام كأنهم لم يذوقوا
للأكل مذ خلقوا طعماً .

وساد السكون الحجرة مرة أخرى ، وتلفتت الجدة
حولها ، فإذا بالصبية النحيلة مازالت قابضة في مكانها لم تغادر
الحجرة مع الجمع الصاخب المنطلق .

وكانت الصبية الصغيرة تبدو شاردة النظرات . . تائهة
الفكر ، وقد ملاً الحزن قسماً وجهها . . وسألتها الجدة
في رفق عما بها ، ففاضت عيناها بالدموع وأجابتها في صوت
خافت يقطعه البكاء :

— لم قتلها ؟ ! وقتل نفسه ؟ ! لو أنه تمهل قليلاً لعلم أنها
لم تسمه ولعاشا سعيدين وتمتع كل منهما بالآخر .
وضحكت الجدة وربت على ظهر الفتاة . . ثم قبلتها في
حنان وأجابتها :

— يا حبيبتي إنها قصة . . فليس هناك أمير ولا أميرة .
ولكن الصبية لم يقنعها هذا القول واستمرت في وجومها
وشرودها ، وفاض بها الحزن على العاشقين . . واستمر
الأسى يملأ قلبها .

وذهب الصبي في الخميس التالي فافتقد الصبية بين الجمع ،

وسأل عنها فأنباوه أنها لم تحضر لأنها مريضة .. ولم يكن
الجمع على عادته من المرح والضجيج ، وكانت الدار يسودها
سكون موحش ، ولم تقص الجدة قصتها كعادتها كل خميس ..
فقد كانت هي الأخرى حزينة واجمة .

ولم يستطع الصبي أن يمنع نفسه من الضحك ، عند ما
أخبره أحد الصبية هامساً أن ابنة العم مريضة من فرط
حزنها على الأمير والأميرة التي سمعت قصتهما من الجدة في
الأسبوع الماضى .

وقبل الغسق رأى الصبي عمه (والد الصبية المريضة) ،
قد حضر إلى الدار متجههم الوجه ، مقطب الجبين ، وشاهده
يدخل على جدته .. ثم سمع الجدة العجوز تبكى بكاء خافتاً .
وذهل الصبي عندما أبصر بجدته ، للمرة الأولى في حياته
قد خرجت من حجرتها وهى تزحف على الأرض ، وقد
أصرت على الخروج .. ثم رأهم يحملونها على مقعد وينزلون
بها السلم حيث يضعونها فى عربة حملتها إلى بيت العم ، حيث
الصبية المريضة .

وعلم أن الصبية قد أصابتها حمى خبيثة شديدة الخطر ،
وأنها تهذى بقصة الأمير والأميرة ، وتبكي فى هذيانها على
ما أصابهما .



وفي بيت العم رأى جدته العجوز ، وقد حماؤها إلى
حجرة المريضة ، وأرقدوها بجوارها .

وكان الصبي دهشاً من كل ما حدث .. لا يكاد يدرى
سبباً لا انتقال جدته ، وتكليف نفسها كل هذه المشقة والعناء
ومد رأسه داخل الباب ، فأبصر بجدته قد تمددت في فراش
الصبية ، وقد ضمتها إلى صدرها بإحدى يديها .

وسمع صوت الصبية يهذى بكلمات متقطعة ، ثم سمع
صوت الجدة تدلها بكلمات ملؤها الرقة والحنان . وتقول
« يا حبيتي .. ألا تدري ما حدث للأميرة والأمير ؟ »

وصمتت الصبية ، وانقطع هذيانها وعادت الجدة تقول :
— لقد أفاق الأمير ، فعلم أن السيف لم يقتله بل أصابه
بجرح خطير كاد يودي بحياته لولا أن استطاع الحارس
نجدته وأبلغ الطبيب فضمده له جرحه وأنقذ حياته .. وساء
الأمير أن وجد نفسه حياً ، فقد كان لا يرغب في الحياة دون
أميرته المحبوبة .. غير أنه علم أن الأميرة أيضاً لم تمت ، إذ لم
يكن جرحها قاتلاً واستطاعوا إنقاذها .. فملا الفرح قلبه ..
ولكنه خشى أن يقتلوه لمحاولته قتلها .. وخشى أكثر من
ذلك أن تكون قد عادت إلى بغضه وكرهه بعد ما فعله
بها .. وعصفت به الهواجس فعاد إلى إنغمائه .

وأفاق الأمير مرة ثانية على صوت حبيب إلى قلبه . .
فلم يصدق أذنيه ، ولكنه فتح عينيه ، فأبصر أمامه الأميرة
المحبوبة بدمها ولحمها . . وأبلغته الأميرة أن أباه قد عفا عنه
وأطلق سراحه ، وأنه حر في أن يعود إلى مملكته ، ولكن
الأمير لم يبد عليه الفرح ، وأخبرها أنه لا يريد حرته ولا
مملكته ، ولكنه يريد ما هي . . فأخبرته أنها هي أيضاً ملك
يديه يفعل بها ما يشاء .

وتزوج الأمير بالأميرة « وعاشوا في الثبات والنبات ،
وخلفوا صبيان وبنات » .

وظهر الهدوء على الصبية المريضة وكفت عن الهذيان
واستمرت الجدة تدللها حتى راحت في سبات عميق .
وعند ما عاد الصبي في الخميس التالي ، وجد الصبية في
وسط الجمع ، وهي تضحك في غبطة ومرح . . وكان أول
ما قالت له :

— ألا تدري ما حدث للأمير والأميرة ؟

فضحك الصبي وقال :

— نعم أعرف . . لقد أنقذا من الموت ، وتزوجا .

واندهشت الصبية كيف علم الصبي ، وسألته من
أنخبرك ؟

وضحك الصبي مرة أخرى وأجاب :
- أخبرني الأمير نفسه .

ولا يذكر الصبي أن الجدة قصت عليهم بعد ذلك قصة
إلا وقد تزوج البطالان في النهاية .

فهرس

صفحة

الإهداء	٥
مقدمة	٧
خال علام	٩
رحس الفرن	٢٥
الأسطى عبده والمستر توىدى	٣٧
فى بىس معه	٥١
فى رذنسوس	٦٥
الوسواس الخناس	٨١
إمام الفك	١٠٥
النزهى	١١٩
رصىنىة قرع	١٣٧
فى سبىل كلب	١٥١
منهى الفناء	١٦٩
الزوس الحادى عشر	١٨٧
رحدس حدة	٢٠١